

لست ناقدًا، فهذا شرف لا أدعيه، وإذا كان اتهاما فلا أنكره مجاملة للسادة النقاد! وهأنذا في موقف بين الشرف والاتهام بعد أن طلب منى الأستاذ نبيل أباطة التحكيم في مسابقة أخبار اليوم للقصص القصيرة، واختار من بين القصص المشتركة في المسابقة، عشر قصص لينشرها في هذا الكتاب.

قبلت بغير تفكير طويل، لأنى سعيد بمساهمة مؤسسة كبيرة كأخبار اليوم في النشاط الثقافى والابداعى، ولأنى أتمنى لو أن مؤسسات مالية وصناعية كبيرة تحذو حذو أخبار اليوم وتساهم في هذا النشاط لنتحرر من بيروقراطية تشرف وتتدخل في ميزانية الدولة ولا تكاد تفهم أن للابداع الفنى والأدبى دورا فى بناء الانسان فى المجتمع، وأثرا مباشرا فى عملية التنمية ودفع عجلة الانتاج ومواجهة مشاكل اجتماعية بالغة الخطورة من أهمها مشاكل تنظيم الأسرة. ان خبراء وجهابذة وزارة المالية يلغون بجرة قلم مشروعات لترجمة الكتب ومازلت أعانى كمقرر للجنة للتفرغ فى المجلس الأعلى للثقافة من شطب اعتمادات منح التفرغ لأن السادة خبراء البيروقراطية لا يرون سببا لصرف مليم واحد على أديب أو رسام يمسك بقلم أو فرشاة ويشخبط على الورق! ولأن الابداع الأدبى والفنى ليس طعاما يأكلونه أو شرابا يشربونه أو لباسا يلبسونه، وهم يفكرون بنفس العقلية التى تأمر بقطع أشجار الحدائق لبيع أخشابها، وتحويل الحدائق إلى مبان، ويوفرون مصاريف علاج

□ حكايتى مع هذه القصص □

التلوث ولا يهتمون بتلويث مياه نهر النيل أو قذارة المدينة أو تسميم هوائها. أنهم يجهلون أن الفن الجميل والذوق الرفيع بالنسبة لعقل الانسان ومعنوياته كالأوكسجين النقى بالنسبة لرئة الانسان وبما فيه جسده. وعلماء التاريخ والاجتماع يؤكدون لنا أن ازدهار الآداب والفنون يواكب ازدهار الحضارة والعمران، وانحطاط الابداع يواكب عصور الانحلال والاضمحلال والتفسخ الاجتماعى. والعقول المتفتحة بالعلوم والفنون هى وحدها التى تستطيع التصدى لمسئوليات التنمية فى عالم تسيطر عليه أجهزة اتصال وتتدفق المعلومات كالطوفان الهادر. ولا بد من استجابة ذكية سريعة، ولا بد من اختيار وقرار فى الوقت المناسب، ولا مجال لانتظار قرارات بطيئة تصعد وتهبط سلالم البيروقراطية دون أن تبصر أبعد من مواطنى أقدامها.

الاهتمام بتنمية روح الخلق والابداع والابتكار، جزء لا يتجزأ من تنمية المجتمع كله، بل مساهمة - أيضا - فى النشاط الثقافى العالمى الذى أصبحت المساهمة مطلبا لا بد من تلبيته حتى لا تنعزل وتتخلف وتسقط فى قاع لا نجاة منه. وإدراك هذه الحقائق ليس ترفا، إذ يتوقف على هذا الادراك، وسلامته، مستقبل الوطن والأمة بلا أدنى مبالغة.

لذلك أنتهز هذه الفرصة لتحية الأستاذ الكبير إبراهيم سعده، لاهتمامه بهذا المشروع الثقافى وأطالبه بأن يفكر فى المساهمة فى مشروع تفرغ الأدباء والفنانين وأن يدعوا المؤسسات المالية والصناعية أن تساهم فى استثمار مواهب كبار الفنانين وأن تمنحهم الفرصة لتحقيق أحلامهم فى الخلق والابداع الذى هو ثروة حقيقية لنا وللانسانية جمعاء.

وفى يقينى أن وزارة الثقافة لا يخطر ببالها أن يكون النشاط

□ حكايتى مع هذه القصص □

الابداعى مقصورا على مشروعات الوزارة والقطاع العام، والدليل على ذلك أن فاروق حسنى وزير الثقافة طلب تعديل لائحة التفرغ، ليتحول الى استثمار للمواهب وليس معاشات وإعانات، وجاء فى اللائحة الجديدة أن تمويل منح التفرغ قد يكون بمساهمة الهيئات والجمعيات ومؤسسات القطاع الخاص. وليس هذا بدعة فى تاريخنا الثقافى، فمؤسسات بنك مصر التى أقامها طلعت حرب هى التى أقامت ستوديو مصر للتصوير السينمائى.

البحث عن معيار للاختيار

اشترك فى مسابقة القصة القصيرة لأخبار اليوم مئات المتسابقين، وبعد تصفية أولى، استقر رأى على اختيار ثلاثة وستين «اسما» لكاتب وكاتبة، كتب أغلبهم مجموعات قصصية بمعدل خمس قصص. أى أن الاختيار الأخير جاء بين حوالى ثلاثمائة قصة. كان أصحابها مرشحين للفوز بجائزة النشر، وأرى نشر أسمائهم جميعا تحية لهم، واعترافا بأنهم أصحاب موهبة - ربما تحتاج إلى بعض الصقل أحيانا - لكنهم جميعا كتاب قصة بكل المقاييس.

وهنا نصل إلى مأزق الاختيار، وهو مأزق تورطت فيه شخصيا، وأصبحت مسئولا عنه، ولا أملك غير ذلك! ولا بد أن أتحمل سخط من لم يحصل على جائزة، ولا بد أن يحتج من لا يجد قصته منشورة فى هذا الكتاب ولا يحصل على الجائزة. وربما كان الأفضل للنجاة من هذا المأزق أن يظل اسمى مجهولا، لأتخلص من احتجاجات طبيعية، ومزعجة لا مفر منها!

ولقد حاولت أن أضع معيارا للاختيار نتفق عليه، لكنى فشلت فشلا ذريعا، إذ أين نجد معيار النقد الذى يتفق عليه الكتاب أو النقاد. ومن الذى يملك أن يقول أن أسلوب هذه القصة هو الأفضل، أو أن هذا النوع من السرد هو النموذج، بل من يستطيع أن يرشدنا إلى

□ حكايتى مع هذه القصص □

الحدود الفاصلة بين القصة والرواية القصيرة، أو بين القصة وقصيدة الشعر أو المسرحية أو التحقيق الصحفى!

حطمت التيارات الأدبية كل الحدود والقيود والسدود منذ اجتاحت عالم الثقافة منذ الحرب العالمية الثانية فى منتصف هذا القرن العشرين الذى يحتضر الآن فى سنواته الأخيرة. كل شىء أصبح مباحا فى الابداع بعد أن كان مباحا فى الحرب والحب! وانطلقت المصطلحات كالصواريخ فى سماء الابداع. سيرىالية وعبثية وشكلية ووجودية فلما اعتاد الناس عليها ظهرت الحداثة ثم ما بعد الحداثة، والبنىوية التى هللت لها ثم هجروها ليتحدثوا عن «التفكيكية»، فمشاريع البناء تحولت إلى مشاريع هدم وتفكيك. وكل مصطلح من هذه المصطلحات وراءه جيش من النقاد دبجوا آلاف المقالات والكتب، ولو كنت أتبع مدرسة وأتبنى مصطلحا من هذه المصطلحات، ما كنت - فى تقديرى - كتبت قصة أو رواية واحدة!

ولذلك يختلف حديثى عن القصة عن أى حديث آخر، فأنا لا أكاد أعرف مسبقا ما الذى سوف أكتبه عندما أشرع فى كتابة قصة أو رواية. قد تكون لدى أفكار وخواطر ومجموعة من انطباعات وردود أفعال لمواقف صعبة صادفتنى، أو تحديات على المستوى الشخصى أو العام اعترضت حياتى. لكن كل هذا يظل يحوم حولى، قد يثيرنى وقد يستفزنى، يقلقنى أو يؤرقنى لكنه لا يتحول إلى عمل أدبى - قصة أو رواية - لأنى عندما أشرع فى الكتابة وأمسك بالقلم، وتتحرك يدي فوق الورق - الآن أحاول الكتابة بالكمبيوتر وبالضغط بالأصابع! أدخل عالم الكتابة، وأخرج فى نفس اللحظة من تجارب الواقع وتحدياته، بما فيها تجارب الحياة والموت، لأنى أسافر رحلة الفن والخلق فلا أكاد أعرف ما سوف أتعرض له من مفاجآت، وما سوف يقابلنى من كائنات لا أعرف كيف أحدها، لكنها تطرح

□ حكايتي مع هذه القصص □

على خيالات ورؤى، وتطرح أسئلة كالألغاز لا أتوقعها، فيما أن أجيب وأواصل الرحلة، أو أخفق فتنتهي الرحلة بالاحباط، أما تجارب الواقع وتحدياته، والخبرات التي اكتسبتها، فهي ليست أكثر من أوراق جواز السفر الذي به تأشيرة العبور الى عالم القصة. وهو عالم لا صلة له بالأسباب التي دفعت إليه، فغير صحيح أنى أسجل مشاعر قديمة مكبوتة أو أسطر كلمات على الورق هي اعترافات ومواجهة مع النفس، أو محاولة للتخلص من تصرفات ضايقتني أو أزعجتني. كما أن كتابة الأدب الصحيح ليست للانتقام أو التشفى، أو للهرب من مواجهة مخاوف أو السيطرة عليها، وقد يحدث النقاد في هذه الأمور، ويختلفون أو يتفقون، ويسترشدون بفرويد للغوص في أعماق الكاتب أو أعماق النص. أو يسترشدون بماركس لتحديد الصراعات وتفسيرها وتبريرها. وقد يخلقون في طائفة لمشاهدة النص الأدبي من خلال المنظر العام للبيئة التي ظهر منها. لكن الحقيقة بالنسبة لي، هي أنى لو حملت معى إلى عالم القصة، أية مشاعر شخصية، وأية انفعالات من عالم الواقع، فسوف تتعطل الكتابة وتفسد، لأن حراس الفن القصصى لن يسمحوا لي بالمرور من عالم الواقع إلى عالم الابداع. وغالبا ما اضطر للتظاهر بالبراءة، وبمكر أقرب إلى مكر الأطفال، وكأنى في رحلة للعب، قبل أن يسمحوا لي بالدخول.

وبدئى أنى لا أستطع الكتابة وفي رأسى طنين السلطة، كأن أكتب ليرضى الرقيب عن القصة، أو لأحصل على جائزة، رغم أنى حصلت على جوائز! — كما لا أتصور كتابة قصة لأهاجم فلانا بالذات أو لأروى قصة فلان، كما شاع أنى كتبت رواية الرجل الذى فقد ظله عن محمد حسنين هيكل، أو أن عبد الهادى النجار فى « زينب والعرش » هو مصطفى أمين، أو أن أحمد عبدالسلام دياب، هو كمال رفعت

□ حكايتي مع هذه القصص □

عندما تولى الاشراف على أخبار اليوم في فترة تنظيم الصحافة. وإذا كان هناك وجه شبه، فذلك لأن الخيال القصصى يتحرر من الوقائع، لكنه يكشف - ولا أدري كيف يحدث هذا - عن جوهر الواقع. وهو أقوى من الوقائع وأصدق في تصوير جوهر العلاقات، وعندئذ يكمل القارئ - من عنده وبخياله الشخصى - رؤيته التى يستوعب بها جوهر الواقع.

ولقد كان رأى دائما، ان الذى يريد أن يكتب داعيا لمواقف سياسية يؤمن بها، عليه أن يكتب مقالات سياسية أو اجتماعية واضحة، ولذلك حرمت نفسى لست سنوات من كتابة أى عمل أدبى طوال فترة رئاستى لدار التحرير، ولا أدري ماذا يقول النقاد فى ذلك، ولكنى أشعر أن من واجبى أن أشرح موقفى للذين شاءت الظروف أن أختار عشرة قصص من بين قصصهم، لأنى لا أملك إلا أن أكون ما أنا عليه، ولا أستطيع أن أجارى النقاد وهم يفسرون ويشرحون، ويعيدون تركيب الكلمات والجمل، ويدخلون الكاتب أو النص الذى كتبه فى قوالب مجهزة لاختبار نظريات ومناهج فى النقد. وفى رأى أن مجرد الاحساس بوجود مثل هذه القوالب يكتم أنفاس الكاتب ويكتم حيوية النص الذى يكتبه، ومن حسن الحظ أن النقاد يختلفون ويخرجون علينا كل يوم برؤية جديدة. ولقد حاولت ذات مرة أن أقنع أحد نقادنا الكبار بأن المهم هو العلاقة المباشرة بين الكاتب والقارئ، فأدهشه جهل بنظريات النقد، وقال ان النقد هو الجسر الذى يعبر عليه القارئ إلى الكاتب، أو الكاتب إلى القارئ. فقلت له ان كلمة «جسر» فيها مبالغة، وربما كلمة «التعريف» أصح وأصدق. فكبار النقاد يتولون عملية تعريف القراء بالمواهب الابداعية وبعد ذلك يملك المتلقى حريته المطلقة، ليرى العمل الابداعى كما يشاء، والنقاد الانجليزى «جونسون» اكتشف للانجليز شكسبير لكنه لم يفرض

□ حكايتى مع هذه القصص □

عليهم رأييه فى شكسبير، والناقد الفرنسى «رينان» قدم لنا «تورجينييف» الروسى فرفض أن يحدد ملامح معينة له، وقال أن «تورجينييف» موهبته أكبر من أن تكون له شخصية محددة، و«سانت بييف» قدم لى بلزاك الكاتب الروائى والصحفى والرجل الذى يرتدى «الروب دى شامبر» والدكتور طه حسين الناقد قدم أبا العلاء المعرى واكتشف الأديب توفيق الحكيم.. وبعد أن استمع الناقد الكبير لكلامى، هز رأسه وقال ان ما سمعه هو «نظرية» أخرى من نظريات النقد، لأنه لا مفر من الخضوع لنظرية نقداً فاعترضت وقلت له محتداً فى غيظ أنه يدافع عن وظيفته!

موت المؤلف.. وموت القارىء!!

ويبدو أن بعض النقاد ضايقة مواقف مماثلة من الكتاب الذين يصرون على وجودهم وعلى اللقاء بالقارىء مباشرة. ولا يهتمون كثيراً بما يقوله النقاد. فأعلنوا أن الكاتب الذى يسعى مباشرة للقارىء لا يقدم نصاً أدبياً، بل يقدم سلعة يبحث لها عن مشتر. فهو تاجر وليس مبدعاً. وضربوا الكاتب ضربة قاضية فأعلنوا أن النص هو المهم. بدلالة لغته أو دلالة صراعاته الطبقية. والكاتب بعد أن ينتهى من كتابة النص لا معنى لتدخله ويوصل الأمر بهؤلاء النقاد إلى إعلان موت المؤلف. مات وشبع موتاً غير مأسوف عليه، بعد أن ترك النص الذى يستولى عليه الناقد ويفعل به ما يشاء.

كان موت المؤلف علاجاً ناقصاً. فهناك القارىء الذى يتدخل ويعلن رأييه، وكل قارىء عالم بذاته، يقرأ على هواه ويفسر ما يقرأه كما يشاء. وهذا يعارض تماماً النظريات التى ينادى بها النقاد، وهى أحياناً نظريات سياسية يحميها رقباء. وهى أحياناً نظريات للكشف عن حالة المجتمع ويتولى تطبيقها أساتذة أكاديميون يعملون فى أجهزة المخابرات، ويدرسون النصوص الابداعية فيما يشبه عمليات

□ حكايتي مع هذه القصص □

التحليل التي يقوم بها الانسان في المستشفى ليعرف حالته الصحية.. وهكذا ارتبط النقد بالسلطة وبالرقابة وبوسائل السيطرة والهيمنة على المجتمع، ومعرفة مجتمعات الجيران والأعداء. وانعزل النقاد عن القراء، وأعلنوا أن القارئ مات!

وهكذا استولى النقاد ومن ورائهم أجهزة كثيرة في السلطة على النصوص الأدبية، وعزلوها عن المؤلف الذي «ارتكبها» أو «القارئ» الذي يمارس خطيئة التفكير فيها وحده!

المؤلف مات والقارئ مات، وعاش ناقد النص الذي يكتب التقرير عن الوثيقة التي فيها أسرار اللغة والمجتمع. ولاشك ان هذا الذي كان يحدث في أوروبا شرقا وغربا تأثر به بعض نقادنا وبعض الدارسين في جامعاتنا المصرية فأمسكوا بأعمالنا وفرضوا عليها ما قرأوا من نظريات. أحد الدارسين حصل على الدكتوراه من بحث في السرد الروائي ورواية الرجل الذي فقد ظله كنموذج. فبدأ بأن أدخل الرواية في قالب «الرواية الاشتراكية» ثم اضطر أن يكتب في أكثر من عشر مناسبات أن الرواية «الاشتراكية» ليست اشتراكية وتخرج عن المؤلف في الرواية الاشتراكية، لكنها لابد أن تكون اشتراكية! وهناك من كبار النقاد من ضحك وسخر من هذه المحاولات، لكني قلت لنفسي أتى لست مستعدا — ولا أستطيع أن أصنف القصص التي سوف أختار من بينها حسب قوالب ونظريات، وقررت أنه ليس أمامي إلا القراءة، والعلاقة المباشرة بيني وبين النص كقارئ — لا كناقد — بمعنى أن أترك نفسي على سجيتهأ تجذبني الكلمة — والجمل للقراءة فأشعر بالرغبة في مواصلة القراءة، أو لا تجذبني فأشعر بالملل فلا أواصل القراءة. وأعترف أن اللغة وإيقاع الكلمات وسلاسة السرد من العوامل التي تشجعني على القراءة.

■ حكايتي مع هذه القصص ■

معارك قديمة

وتختلف اللغة في القصة عن لغة التخاطب العادي، وهذه وجهة نظري، ولا أستريح للابتذال والركاكة، وتعجبني حيوية الايقاع، وأعرف أنه ليس من السهل أن يضع كاتب القصة حدا فاصلا بين اللغة الدارجة أو اللهجة العامية واللغة الأدبية، لكنه يحاول ويتحمل مسئولية المحاولة، في اختيار الكلمات المناسبة التي هي علامة على الحس المرهف والذوق السليم. وفي تاريخنا الأدبي أحداث جسام ومعارك كبرى حول اللغة، لا نستطيع أن نتجاهلها، ومن أهم هذه المعارك، مادار بين الدكتور طه حسين والأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي منذ حوالي سبعين عاما على صفحات جريدة السياسة، إذ كتب طه حسين يتهم أسلوب الرافعي بأنه «نقص أدبي لأن الكمال الأدبي يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة، وهو نقص خلقى لأنه كذب.. كذب للكاتب على نفسه وعلى معاصريه»!

وكلمات طه حسين قاسية، وكان الرافعي يكتب بأسلوب القرن الرابع الهجري، ويختار ألفاظا براقية تتوهج بذاتها وبحروفها، وكان يهتم بزخرفة الأسلوب، وينفر من التبسيط، ويرى أنه آفة انتقلت إلينا من الأساليب الأفرنجية - الانجليزية والفرنسية.... الخ ويرى انها قد تفتن الناس فينسون لغة القرآن الكريم ولا يستطيعون تفسير الأحاديث النبوية الشريفة. وكان الرافعي يحارب ويرد على طه حسين بقسوة ويتهمه بأنه الرجل الذي فتنته فرنسا وجاء لينشر الفتنة الأجنبية في اللغة العربية، وكان يقول لطله حسين.. ألم يأتك قول المتنبي..

وكم من عائب قولا صحيحا

وأفتنه من الفهم السقيم !

وكان مسرح المعركة بين طه حسين والرافعي هو القصة، لأنها

□ حكايتى مع هذه القصص □

جنس أدبى جديد وافد من أوروبا، وهى غير الحدودية أو النادرة أو الأقصوصة، كما وردت فى كتب التراث، وكانت التقاليد لا تسمح بتصوير علاقات انسانية متشابكة بين أفراد، رجال ونساء، فى قصة مميزة يقرأها القراء وحدها، خارج الاطار الذى تدخل فيه النوادر والأقصوصات سواء فى ألف ليلة وليلة أو الأغاني أو المحاسن والأضواء أو الأمالى أو غيرهم. ولذلك وجد محمد حسين هيكل حرجا شديدا فى كتابة اسمه كمؤلف لرواية زينب عندما نشرها عام ١٩١٤. فكتب لمؤلفها «فلاح مصرى» بعد أن أيقن أنه لا يستطيع أن يمارس مهنة المحاماة بعد أن درس القانون فى باريس، ثم يشتهر بين الناس بأنه يكتب قصة عن امرأة اسمها زينب، ويهتم بها فيجعل من اسمها عنوانا لكتابه، فهذا أمر مغل بالوقار المفروض فى محام يدافع عن حقوق الناس وأعراضهم أمام المحاكم.

وروى المازنى أنه كان بمكتب هيكل فى جريدة السياسة عندما دخل عليهما شاب معمم وسأل فى خجل وارتباك عن كتاب «زينب هانم»؟ لأن الشاب الأزهرى وجد حرجا شديدا فى النطق باسم المرأة بغير أن يضيف كلمة «هانم» ليضع حاجزا أو نقابا بينه وبين زينب! هكذا كانت التقاليد فى ذلك الوقت. وكانت القصة «فتنة طارئة» وأسلوبا معيبا، شديد التبسيط، والتركيز على ما يفسد أخلاق الناس وعقولهم. ولو كان هيكل كتب كتابا فى الأدب أدخل فيه قصصا وأشعارا وتأملات، بحيث لا تبرز قصة بذاتها وينسجم الجميع - النثر والقصص والأشعار والطرائف - فى النسيج الزخرفى المعروف فى تراثنا الأدبى، ما كان هناك خجل أو عيب.

ودافع المازنى عن «زينب» وتساءل بأى لغة نكتب الحوار - كان ذلك منذ سبعين عاما - وقال المازنى «الجواب عندى أن نكتب باللغة العربية إلا إذا كانت اللهجة العامية أعون على تصوير الشخصية

□ حكايتي مع هذه القصص □

وأبرزها على حقيقتها.. ثم قال المازنى أن اللغة تأثير في أسلوب التفكير والتفاتات الذهن واتجاهات النفس، فابن الصعيد والمنوفى والبحيرى، ليس تفكيرهم على نسق واحد مهما بلغ تقاربهم، فإذا أسقط الكاتب اللهجات العامية جملة، فإنه يسقط معها عاملاً قوياً من عوامل التوجيه النفسى ويجيء بالصورة ناقصة ألوانها غير قادرة على الكشف عن الشخصية.

وكتب محمد حسين هيكل يدافع عن لغة «زينب» عندما أعلن أنه كاتبها «الفلاح المصرى» فقال.. اللغة كساء الأدب، وهى تتطور كالأزياء فلم يبق شخص الانسان كومة من النسيج النفيس تزينها الأشرطة والتنتلات وتحملها الأحذية المرصعة، وتكسو أعلاها شعور مستعارة، وتطل من خلالها صورة وجه انسانى مختف تحت الأصباغ والألوان، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الانسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها.. وصارت الحياة الانسانية هى موضع الجمال بذاتها، وليس موضع الجمال هو اللباس الذى يكسوها.

وكان المازنى جريئاً فكتب مجموعة من القصص القصيرة فى مجلة السياسة ولم يتردد فى أن يسجل الحوار بلهجة عامية، بل انه كتب فى إحدى قصصه الحوار بلهجة رجل يونانى ضبط متلبساً بالسرقة ويحاول أن يتكلم بالعربية..

واندلعت معركة اللغة فى مجلة الرسالة عام ١٩٣٣ عندما نشر أحمد أمين سلسلة من المقالات تحت عنوان «تجديد الأدب» جاء فيها أن فى عصرنا الحديث نشأ قوم تأثروا بالأدب العربى القديم وحذوا حذوه، ولنو خرجوا قيد شعرة منه، فلو ركبوا الطائرة قالوا ركبنا الهودج والبعير، وإذا استهلكت السيارة البنزين قالوا «رعت السعدان» أى رعت الجمال، وإذا لم يكن لهم من الأمر شىء، قالوا لا

□ حكايتى مع هذه القصص □

ناقة لنا ولا جمل وهم فى الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل.

ورفض الدكتور عبدالوهاب عزام دعوة أحمد أمين للتبسيط وقال
انها تؤدى إلى تمييع الأخلاق بينما المفروض هو أن يتعود الشباب على
الخشونة والصلابة وذلك يتحقق بالتعود على الألفاظ العربية
الخشنة!

وعندما اشتركت فى مناقشة اللغة فى الخمسينيات، كان الجدل بين
العامية كاتجاه يسارى والفصحى كاتجاه يمينى أو رجعى..
وأرسل لى الدكتور عبدالوهاب خطابا من نيودلهى وكان سفيرا لمصر
فى باكستان، يعاتبنى لأنى استشهدت برأيه ضد أحمد أمين، وهذا
لا يجوز — من وجهة نظره — لأن أحمد أمين توفى الى رحمة الله!
(نصيحة سومرست موم!)



تذكرت هذا التاريخ — والحديث فيه يطول — عند استعراضى
للقصص لأختار من بينها، وسألت نفسى ماذا يكون الحال، لو أن
هيكل والمازنى وطه حسين وأحمد أمين كرواد خاضوا معركة تحرير
التعبير بالكلمة وحققوا فيها نجاحا كبيرا؟ وسألت نفسى ماذا يكون
الحال لو أن غيرى هو الذى قام بالاختيار، وبيننا فى مجتمعنا حتى
يومنا هذا من يرى أن القصة فتنة، أو يرى أن اللهجات العامية ليست
أدبا بل انحلالا وميوعة، وبيننا من ينفر من الذوق والحساسية
الأوربية، وبيننا من يرى القصص وثائق وتقارير عن المجتمع وبيننا
من يهتم بالنص ويعلن موت المؤلف أو موت القارئ أو كلاهما. ولو
أردت أن أعدد الاحتمالات ما توقفت لأنها غير محدودة، ولا بد من
احترام تعدد الآراء، والاتجاهات، ولا بد — أيضا — أن أتوه بأن اختيارى
للتحكيم فى هذه القصص لابد أن يكون له تأثيره المباشر. ولقد حاولت
— بقدر الامكان أن أشرح بعض ما فى نفسى نحو عملية الكتابة واللغة،

□ حكايتي مع هذه القصص □

ولا أجد أمامي في نهاية الأمر إلا أن أختار ما كان أكثره تشويقاً - نسبياً - وما جعلني أواصل القراءة بغير ملل منذ السطور الأولى.

وأذكر بهذه المناسبة حكايتي مع الروائي العالمي المعروف سومرست موم.. وقد قابلته في الخمسينيات - عام ١٩٥٤ على ما أظن - في جناحه الخاص بفندق سميراميس المطل على النيل. وكنت مبتدئاً في كتابة القصة القصيرة ولم أكتب الرواية بعد.. ودار بيننا حوار حول القصة بعد أن وجه الى سؤال عن أسلوبى وكيف أكتب القصة. فلما استمع الى، صاح مستكراً ما سمعه وقال.. هناك رجل واحد في العالم أيها الشاب يستطيع أن يكتب بالأسلوب الذى تتحدث عنه، وهذا الرجل اسمه «انطوان تشيكوف» وأنت بالقطع أيها الشاب لست انطوان تشيكوف! واختفلت معه. شاب مبتدئ يعاند عجوزاً مخضماً وهو غالباً ما يكشف عن صراع حياة أو موت لكليهما. بين رغبته في إثبات الذات - رغبة تحافظ على الذات وتصورها من تمرد القادمين الجدد. ومع ذلك استمعت الى واحدة من نصائح موم ما زلت أثق فيها، وهى أن القصة لا بد أن تجذب الانتباه، ولو كنت تحكى القصة بين ناس حول مائدة طعام شهى فلا بد أن تجذبهم وتلهيهم عن الطعام ليتابعوا القصة، وما زلت أبحث عن هذا التشويق بين الكاتب والقارئ وأرى أنه حجر الزاوية في بناء العلاقة بينهما، وأن عملية الإبداع لا بد أن تكمل - كما يقول نيتشه - بوجود شاهد. كما أن عملية الخلق عند الله عز وجل اكتملت بوجود الشهود الذين يشهدون على الخلق ويعبدون الخالق.

مزاج شخصى.. ولكن!

وتختلف درجة التشويق في القصص التى وقع عليها اختياري، ولكنها كانت أكثرها تشويقاً، وقد يجد غيرى - من كبار النقاد - أعمالاً امتازت بكثافة الأسلوب وتراكم المشاعر والصور في جمل مركبة، وقد

□ حكايتي مع هذه القصص □

يجد آخرون قصصا لها دلالات ايديولوجية يفضلونها ويبحثون عن أهمية النص في دلالاته السياسية والاجتماعية، وليس في التشويق - لكن كل هذا - بصراحة تامة - لم أتوقف عنده لأن القصة عندي في المقام الأول حكاية أو حدوتة تشدني إلى قراءتها. ومع ذلك تبينت بعد أن أكملت عملية الاختيار أنها شملت أنواعا وأساليب متعددة. بينها القصة الأقرب إلى الشعر، والقصة الأقرب إلى المقالة الصحفية الساخرة، والقصة التي لها حبكة، والقصة التي تعبر عن لحظة تنوير أو فهم. أو شعور خاص في زمن معين ومكان معين. والقصة التي تدخل بنا عالم الأحلام أو الكابوس، أو التيه أو المطاردة، فلا تخرج منه. وكذلك اختلفت اللغة واللهجات وتعددت، ولكنها جميعا شجعتني على القراءة ولاشك أن مزاجي الشخصي كقارئ كان له تأثيره، وهو مزاج قد يتغير بعد فترة تطول أو تقصر، وكثيرون يتهمونني بأنني صاحب مزاج متقلب. لكنه على أية حال مزاج كاتب يحب كتابة وقراءة القصص والروايات!

فتحى فانم

مثل قزم وسط عماليق ، يقف برج الحمام القديم ..
تتطلع عيونه الكثيرة بدهشة وتوجس إلى الأبراج
الشاهقات من حوله ، تعلوها أطباق مقعرة كبيرة ،
تشرئب نحو شتى الجهات ، وهوائيات استقبال ،
ومكيفات هواء تبرز من الجدران .. يبدو برج الحمام
كنصب شاذ ينتأ من سطح البيت العجوز ، القابع
مستوحشا ، جافلا ، عليه غربة وسهوم الأشياء القديمة.



يطوف إبراهيم بطلول الحديقة في الصباح ، مثلما يفعل كل يوم
منذ رجع من السفر .. يتحرك كدمية حول كوخ بقاع واد ، تحاصره
الجبال العملاقة وتكاد تطبق عليه .. يشاهد شجيرات الطماطم التي
زرعها بيديه في الحقل الصغير وشجرة الرمان العارية الفروع ..
يحدق في شكل تخلف عن سقوط طبقة البياض ، وفي الشروخ ، جراح
البنائيات القديمة ، التي تزيدها الأيام عمقا واتساعا .. يتأمل الأحجار
الجيرية الرطبة ، أساس البيت ، ومن فوقها قوالب الطوب النيء
الآخذ في التحلل والتآكل .

ارتقى إبراهيم في الدرج الخشبي إلى السطح .. راح يهدد بين يديه
الصينية النحاسية ذات الحافة المنقوشة ، وينثر الحب ، وعلى
وشوشات الحب يقبل الحمام .. تحط على كتفه حمامة ، وأخرى
تصطفى قمة رأسه مهبطا .. تصطفق الأجنحة الفرحة وتصطخب ..
يلقط الحمام من الأرض ، ومن كفه المبسوطة بالحب والحب .. ينثال
الماء إلى الوعاء الخزفي ، وينهل الحمام ، وينزل كي يستحم .. ينفش

□ الأبراج □

ريشــه نشوان وينتفض .. يرقد باسطا الأجنحة لضوء الشمس ،
وتأتلق الرقاب بألوان الطيف .

أسند إبراهيم السلم الطويل إلى برج الحمام ، وصعد يتفحص
العيون .. نزل وفي عينيه فرحة طفل .. أحضر الخشب والمسامير ،
وشرع يسد فروج حجرته الخشبية التى أقامها على مقربة من الفرن
المتشقق الخامد منذ زمن طويل .. أطل من نافذة الحجرة على برج
الحمام ، ينصت إلى الهديل ، ويشاهد طقوس الغزل .. استلقى على
ظهره فوق السجادة البالية ، وأخذ يشاهد السماء من كوة السقف ..

« ما تزال تجثم فوق صدرى السحابة القاتمة ، المشبعة بدخان
النفط المحترق ، ودخان القذائف والقنابل ، وغبار البنايات المتهالكة ..
لازمتنى طوال رحلة العودة .. لماذا تطاردنى ولا تريد أن تزال
سمائى!؟ »

تحول إلى مشاهدة الحمامة الغربية الوافدة .. راعه وجود حلقة
معدنية حول ساقها .. كانت تقف على حافة النافذة فى ألفة مثيرة
للدهشة .. لحق بها ذكر بلون «نوار الفول» .. يناغيها .. يدنو منها
منتفخ الصدر هادلا .. استجابت لنداء الحب بعد قليل صد وتدل ..
أخذا يتوشوشان ، ثم رقدت مستكينة ، خافضة جناحيها ، وارتعشا
من نشوة .. لم تجفل الحمامة الوافدة أو تنفر من يد إبراهيم
المتدانية .. استكانت فى راحتيه ، وفحص الساق .. كانت الحلقة
المعدنية تنغرس فى اللحم ، يحوطها ورم طفيف .. حاول انتزاعها
فتألمت الحمامة .. كانت الحلقة قد اندمجت وصارت جزءا من تكوين
الساق .

نثر إبراهيم وجبة اليوم الأخيرة للحمام قبيل الغروب ، وبينما كان
يحدق فى الأبراج ، وقعت عيناه على سيدة تتمدد على مقعد باحدى
الشرفات ، وقد انحسر الثوب كاشفا عن ساقىها البضتين ، وعلى الرغم
من اغضائه السريع ، فقد بدا عليه الاضطراب والخل ، فهرول نازلا

□ الأبراج □

لاقى جيهان ابنة شقيقته أمام الباب .. كانت تحمل كتابا ودفاتر
وتتدلى من كتفها حقيبة .. سبقته إلى الدخول صامتة . دخل على
شقيقته الجالسة على أريكة الصالة العتيقة في مواجهة الباب ، ترتق
ثوبا بيدها ، وقد أرتدت جلبابا داكنا ، وعصبت رأسها بمنديل أسود ،
يلوح من تحته بعض الشعر الأبيض .. قال لها في فرحة :

— الحمام يتكاثر .. في كل عين من عيون البرج حمامة راقدة ..
هناك بيض كبير على وشك الفقس .

ابتسم وجهها الشاحب :

— لابد أن الحمام المهاجر قد آب إلى برجه القديم ، بعد أن أحس
بالأمان .. منذ رجعت من السفر يا ابراهيم ، وأعداد الحمام تزيد .
التفت شقيقه محسن الذي يتابع مباراة كرة قدم في تليفزيون
صغير مشوش الصوت :

— هذا ليس زمن الحمام .

ارتفع صوت جيهان التي تغير ملابسها في الداخل :

— خالي وماما ليس لهما سيرة غير الحمام ، وشجرة الرمان التي
لم تعد تورق ، وحقل الطماطم !
برز وجه شقيقه محمود من باب الحجرة الجانبية ، وهو يسده
بمرفقيه

— أظن أننا يمكن أن نجمع ثروة من تربية الحمام ، وزراعة
الطماطم في الحديقة ؟

جال ابراهيم بنظراته بين شقيقه ، وجيهان :

— لماذا تكرهون الحمام ؟! كانت أمكم تحبه ، وتراه في منامها ..
وجاءت من القرية تحتضن زوجها من الحمام ، تكاثر ، وصار أسرابا ،
تحلق في السماء ، وترفرف على البيوت والجيران الطيبين .. الحمام

□ الأبراج □

موجود في هذا البيت قبل أن توجدوا أنتم ، وكان البرج معلما من معالم الشارع ، وكان الناس يسترشدون به ، ويسمون بيتنا بيت الحمام .
صاحت جيهان :

— وأين تلك البيوت ؟ وأولئك الجيران الطيبون ؟ ألا ترى الأبراج الجديدة ، وسكانها الذين يركبون السيارات ، ويمشون على السيراميك ، ويعيشون في الحجرات المكيفة ؟ أنا أخجل من برج الحمام ، ومن هذا البيت ، أمام زميلاتى فى الجامعة .
أسكتتها نظرة من أمها .. ورنا ابراهيم إلى شقيقته مستهديا بعينيهما مستأنسا :

— كريمة .. سيعود بيتنا كما كان بيت الحمام ..
أجابت بصوت تخامره ارتعاشات الشك :
— الحمام بخت يا ابراهيم .. ألم تكن تسمع أمك تقول : عايز بختك بيان ، هات لك جوز حمام !



كان مستغرقا فى تأمل السماء من كوة السقف .. انتفض على صرير باب الحجرة .. انحنى القادم ، وسد جسمه الضخم فراغ الباب .. كان يرتدى سويتير قرمذى اللون ، وكوفية مزركشة تلتف حول عنقه الغليظ ، ويحمل منظارا مقربا .. قال انه ضابط شرطة متقاعد ، وأنه من هواة تربية الحمام . تركزت عينا ابراهيم فى حذاء الرجل الذى كان يجول بنظراته فى انحاء الحجرة .. خرجا معا إلى السطح كطلب الرجل .. أشار إلى برج شاهق فى شارع خلفى بعيد .. مد يده بالمنظار إلى ابراهيم :

— أنا اسكن هناك .. بالطابق الخامس عشر .. يمكنك رؤية كل شىء إذا أحسنت توجيهه وضبط المنظار ..

□ الأبراج □

وضع ابراهيم المنظار أمام عينيه وصوبه نحو البرج البعيد ،
مستعينا بإرشادات الرجل :

— أظنك ترى العشة الآن بوضوح ؟

— أى عشة ؟!

— عشة الحمام !

— أرى قفصا مثل أقفاص الوحوش .. أمتأكد أنت أنك تربى
الحمام لا الصقور والجوارح ؟

ضحك الرجل .. قال ان الحذر واجب وأعداء الحمام كثر .. أخبر
ابراهيم أنه يضع الحمام فى عشة صممها بنفسه ، تتوافر فيها كل
ضمانات الأمان ، فقد جعل لها قضباناً من الحديد ، يكسوها حاجز
مزدوج من سلك متين ، وتغلق بواسطة عدة ترابيس قوية وقفل
كبير .. وقال :

— إنها لا تسمح بدخول نملة ..

— أعتقد أنها لا تسمح بدخول الهواء أيضا ..

ضحك الزائر ، وأبدى دهشته لترك ابراهيم حمامه طليقا .. حدق
ابراهيم فى عصفورين بقفص فى إحدى الشرفات :

— لم يخلق كل ذى جناحين للأسر ..

ثم نظر إلى الأبراج :

— ألا يكفى الحمام هذا الحصار ؟!

حملق الرجل فى نهدي المرأة المترجرجين أمامها ، وهى تميل وتنشر
الغسيل .. وتقبض عليه بمشابك ملونة ..

— ماذا تقول فى لحم الحمام ؟ إن له شهرة واسعة فى بعث الطاقة
وإثارة النشاط .. كيف لم تتزوج حتى الآن ؟!

حدق فى الرجل مشدوها ..

□ الأبراج □

— لم أذق في حياتي لحم الحمام ، ولا أشتهيه ، ولا أطيق رؤية حمامة تذبح أمامي ..

— لماذا تربى الحمام ؟! لتبيعه إذن ؟

— ليتكاثر ويملأ الفضاء ويحجب سحابات الدخان !

— هواية لمجرد الهواية .. تسلية .. وقت فراغ !

طال الصمت بينهما .. وقال الضابط ..

— أظننا تعارفنا إلى حد ما يا أستاذ ابراهيم .. لا تعجب .. لقد

جمعت بعض المعلومات القليلة عنك قبل مجيئي .. هذا ضرورى جدا .. مع الأسف .. لا أحد الآن يعرف الكثير عن أحد ! جئت لكى استرد حمامة هاربة .. فى رجلها حلقة معدنية ، محفور عليه أول حرفين من اسمى .. أظنها دليلا كافيا ؟!

وأخبر ابراهيم أنه ابتكر الحلقات المعدنية وسيلة يستدل بها على حمامه إذا لزم الأمر ..

— الحمامة عندي منذ بضعة أيام ، وقد صار لها ألف ، واتخذت فى البرج سكنا ..

— أعرف فى أى العيون هى ، ومتى جاءت إليك بالتحديد .. كنت أراقبها بمنظارى ، وكنت متأكدا أنها ستأتى إلى هنا بعد اختفائها يومين ، فالحمام يغوى بعضه بعضا ، وكان يجب أن أصبر حتى تستقر فى البرج تماما .

— وهل تعرف أنها ترقد على بيضتين ؟

لم يبد عليه الاهتمام ، وسأله ابراهيم كيف استطاعت الحمام الهروب على الرغم من احتياطاته الأمنية المنيعه ؟
أجاب فى شيء من الحنق :

— ربما وجدت بين الحمام فردا مارقا .. متمردا .. أحيانا أترك

□ الأبــــــــراج □

باب العشة مفتوحا دون أن تجرؤ على اجتيازه حمامة ..
— اعتاد حمامك الأسر ، وصار مشلول الأجنحة ..
عرض ابراهيم على الضابط ترك الحمامة مع الفها في مقابل أول
زوج يأتي من نتائجهما .. رفض الضابط بإصرار ، وطلب من ابراهيم
أن تعيش الحمامة وزوجها في عشته بنفس المقابل ..
صاح ابراهيم ملتمعا :

— لا .. لا !!

صعد الضابط إلى البرج ، وأمسك بالحمامة ذات الحلقة المعدنية
بالساق .. كانت تتئن وتتململ في قبضته ، وقد اعترتها حالة غريبة من
الفرع ..

— حمامك من نوع أصيل يا أستاذ ابراهيم .. مارأيك أن نتبادل
المعلومات والخبرات مادام لنا نفس الهواية ؟
لم يجب ابراهيم ، واستوقف الرجل على الدرج الخشبي :
— أرجوك لا تصوب منظارك ناحيتي بعد ذلك .
نزل الرجل وهمس ابراهيم في حيرة :
— لماذا لا أسمع وقع أقدامه على الدرج !



جمع الأغصان اليابسة من الحديقة ، وصعد بها إلى السطح ..
كانت كريمة قد فرغت من ترميم الفرن بالطين ، ونظفته استعدادا
لشى السمك . تأججت النار ، وجلس ابراهيم بجوار شقيقته ينشق
الدخان المتصاعد وقد غيبه انتشاء : «دخان أمي الطيب .. دخان
الخبيز ، تخامره رائحة العجين والخبز الساخن .. دخان الشواء ..
دخان الأخشاب والقوالب المحترقة ، وقد اجتمعنا حولها في ليلة شتاء
باردة .. »

□ الأبراج □

انتبها وأرهفا السمع لوقع أقدام متسارعة تصعد الدرج الخشبي..
وقفت جيهان تحمق فيهما لحظات..
— ماذا تفعلان؟!

استدارت وأجابت باسمه:

— خالك يريد أن يأكل السمك مشويا في فرن جدتك.. سأصنع لك
فطيرة، وسأعمل لك عروسة من العجين كما كانت تفعل أُمي.
عبست جيهان وهرولت نازلة..
سأل ابراهيم شقيقته ، وقد افترشا الأرض ، وأمامهما السمك
المشوى:

— هل احتفظت بنصيب محمود ومحسن..

أجابت : نعم.. ورفضت جيهان أن تشاركهما الطعام، وانفجرت
بعد صمت:

— لقد كنتما فرجة لسكان الأبراج وأنتما أمام الفرن.. في أي زمن
تعيشان؟! كان منظركما فوق السطح...
وانطلقت في نوبة من الضحك المتشنج...



اكتشف اختفاء فرخي حمام من إحدى العيون ، وانتابته حالة من
الوساوس المضنية. احتفظ بكشاف أسفل وسادته ، وكان يبيت
مرهف السمع لأقل رقة جناح.. يهب من اغفاءاته القليلة فزعا ،
ويمضي كالمختبط حاملا كشافه المضئ ، يعس في الحديقة ، ويتسلل
إلى السطح باحثا عن عدو الحمام المجهول. يلاحق بعينه بقعة الضوء
متوجسا.. رابته في سكون السحر حركة.. وجد باب الحجرة الخشبية
مواربا.. دخل مستريبا ، واستقرت بقعة ضوء الكشاف على قط ضخ
أسود فمه ملوث بالدماء.. تجمد ابراهيم في مكانه وقد أخذته

□ الأبراج □

المفاجأة.. تراجع القط وقد تقوس ظهره ، وانتفش ذيله وجسمه ، وأخذ في اصدار أصوات كالعواء ، متأهبا للانقضاء.. انزوى ابراهيم في ركن الحجرة مقشعرا ، واندفع القط خارجا.. استغرقت المواجهة لحظات ، وقف ابراهيم بعدها لاهث الأنفاس .. سلط الكشف على الضحية: الحمامة العجوز التي عافت الطعام والشراب منذ أيام ، وكانت تقبع بجوار الفرن.. وجدها ابراهيم مبقورة البطن ، منزوعة الأحشاء. واراها التراب على مقربة من شجرة الرمان ، واهتدى إلى فكرة الأطر الخشبية ، فصنع لكل عين من عيون البرج اطارا ، يضيق من فراغها ، بحيث يسمح بانزلاق الحمام إلى داخل العيون ، ويعوق دخول القط ذى الرأس الكبيرة.. نجحت فكرة الأطر الخشبية المثبتة إلى العيون ، ومرت بضعة أيام بلا ضحايا ، واستعاد ابراهيم الكثير من الأمان ، وتوالى فقس البيض ، وخروج الأفرار الجديدة ، إلى أن اكتشف ابراهيم اختفاء عدد من البيض.. قالت له شقيقته: لابد أنه ثعبان.. القط يفترس الحمام الصغير ، والثعبان يتلع البيض ، وهذا هو السبب في تناقص أعداد الحمام ، وانقراض الأفراد الجديدة ، بعد رحيل أمك ، وغيابك في السفر..

سألها في أسى: لماذا لم يكن يحدث ذلك أيام أمى؟!

اجتاحته الوسواس الليلية بضراوة ، وعاد إلى حمل كشافه ، والطواف بالحديقة.. يسلط الضوء على شروخ الجدران، وشقوق السور ، وفجوات الجذوع النخرة ، ويصعد إلى السطح ، يتابع بقعة الضوء وسط الصمت والظلام.. حشا الشروخ والشقوق بالحصي وسدها بالطين ، وصنع أغطية خشبية كالسدادات ، يثبتها بعيون البرج أوائل الليل ، وينزعها في بواكير الصباح.. مرت الأيام بلا خسائر.. في سكون الظهيرة شاهد ثعبانا أرقش يتسلل من إحدى العيون ، ويتلوى نازلا .. اسقطه ابراهيم بعصا طويلة .. زحف الثعبان

□ الأبراج □

متفاديا الضربات واختبأ بالفرن .. أضرم فيه النار ، فخرج الثعبان مترنحا ، وفتت إبراهيم رأسه بحجر ، واطمأن تماما عندما زفت إليه أخته البشري: أخبرته أنها شاهدت القط الأسود نافقا على رصيف الشارع ، وقالت له ان القط المؤذى مصيره المحتوم هو القتل.. خرج في ظلمة الليل إلى الشارع ، وسلط الكشاف على جثة القط.. كان يتمدد متصلبا ، مشجوج الرأس ، مكشرا عن أنيابه.. تفاعل إبراهيم ، واستقبل أنسام الربيع الدافئة ، المتسللة من جو الشتاء بأمل .. واستراح من عناء تثبيت السدادات ، وانتزاعها .. وانطلقت من العيون أزواج جديدة من الحمام بهيجة المنظر ، تطير هنا وهناك ، وتلاحق الأبوين في تذلل جميل ، وصو صوة مستعطفة ، طمعا في مزيد من الطعام والحنان ، وتشبثا بعهد الطفولة السعيد..



وجدها ترقد في انكسار ، عند انتهاء البقع الدموية التي تشربتها مسام الدرج .. حملها .. أحست لزوجة الدماء وحرارتها أصابعه.. كان ريشها الابيض يصطبغ باللون الأحمر القاني من تحت الجناح.. نزل بالحمامة الجريحة وقال لشقيقته بالتياغ:

— اصابتها طلقة من بندقية صيد ، لكنها ما تزال حية..

نظرت إليه كريمة باشفاق ، وساعدته في تضميد الجرح النازف برباط من نسيج أبيض سرعان ما تخضب بالدماء . أودعها صندوقا من الكرتون ، وعاد إلى السطح ، يحدق في الأبراج .. كان يدور بطيئا حول نفسه متسائلا: من أين أتت الطلقة الغادرة ، وكانت الأبراج مثل مردة صامتتين..

أخبرته شقيقته باحتضار الحمامة عند الغروب ، ولفظت أنفاسها الأخيرة بين راحتيه .. وضعها في الصندوق ومضى إلى الحديقة .. شرع يحفر قرب شجرة الرمان .. رفع رأسه ليجد شقيقه «محمود» أمامه عاقدا ذراعيه..

□ الأبراج □

— ماتت الحمامة يا محمود! كنت أمل أن تعيش ، ولكن أصابتها
كانت قاتلة ..

— ليت كل الحمام يموت!
توقف ابراهيم عن الحفر ، وصدق في شقيقه ..
— إلى هذه الدرجة تمقت الحمام؟!

— ماسر اهتمامك بالحمام بعد رجوعك من السفر؟! هل تتمسك
بالبيت من أجله حقاً ، ومن أجل البرج القديم ، وشجرة الرمان
اليابسة وحقل الطماطم؟ أنت والحمام تضيعان أحلامنا.
أسفر الشباك المتهالك عن وجه محسن .. وقال ابراهيم وهو يوزع
نظراته بين شقيقه:

— أتمسك بالبيت من أجل كل شيء فيه .. كل حجر .. كل طوبة ..
ألم بين أبوكم البرج بيديه؟! أليس البيت يجمعنا؟
قال محمود:

— المعلم فايز مازال يريد البيت .. لقد حدثني عنه كثيراً وأنت
مسافر.

— ليهدمه ويجعله برجاً .. ألا يكفي ما هدم من بيوت طيبة ،
وما زرع في الأرض من أبراج شيطانية؟!
— قال محمود:

— ولم لا نبيع؟ نحن ورثة مثلك .. أنا أريد نصيبي .. ومحسن ..
جيهان أيضاً تتحدث عن نصيب أمها ..
وأكمل محسن من الشباك:

— ألم تسافر لتجمع المال ، وتعطي كل واحد نصيبه؟ ألم تعدنا
بتحقيق أحلامنا؟

— حاولت .. هل كان يتوقع أحد ما حدث؟ هل تجدان تفسيراً لما

□ الأبراج □

جرى على أرض العرب ؟ فقدت كل شىء .. وكان يمكن أن أعود جثة
في صندوق أو لا أعود..

وجم الشقيقان .. وبدا ابراهيم كالطعون ..

— لماذا تنتظران أن أحقق أحلامكما .. الستما رجلين الآن ، يحمل
كل منكما شهادة جامعية ؟! هل فكر واحد منكما في أن يرد مرة على
رسالة من رسائلى وأنا في الغربية ؟! هل كان سيأتى أحكما لاستلام
جثمانى من المطار ؟!

استدار محمود وابتعد بخطوات مستفزة الهدوء ، وانسحب
محسن من الشباك وأغلقه .. وتطلع إلى السماء:

«السحابة السوداء !! لماذا لا تريد أن تنقشع عن سمائى ؟!»

وارى الحمامة التراب ثم قبع وحيدا في الحديقة..



مع أشراقة كل شمس ، كانت هناك حمامة صريعة مضرجة في
دمائها أو تحتضر.. ازدحمت أرض الحديقة بالجثث ، وصارت مقبرة
للحمام .. استبدت يا ابراهيم وساوسه الليلية ، وتحولت اغفائه إلى
كوابيس ، يهب منها مرتاعا .. وقضى فترات طويلة من الليالى مصوبا
كشافه نحو الأبراج العملاقة ، متابعا دائرة الضوء على النوافذ
والشرفات كالمجنون ، وظل يكمن في حجرته الخشبية معظم أوقات
النهار .. واعتراه ذبول وشحوب ، وسكنته الكآبة ، وأعياه البحث عن
البندقية المجهولة ، واليد الآثمة التى تضغط الزناد .. وبينما كان
رابضا في الحجرة قبيل الشروق ، سمع صوتا مكتوما ، أعقبه ارتطام
شىء بسقف الحجرة .. تسلل بهدوء ، واستطاع أن يرى الماسورة
الرفيعة السوداء ، وهى تنسحب زاحفة على حافة نافذة بأحد الأبراج ،
وعرف مكانها على وجه التحديد .. وشاهد الحمامة ترفرف نازفة فوق

□ الأبراج □

السقف .. أخبر شقيقته فأشارت عليه بالذهاب إلى المعلم فايز صاحب الأبراج ، ولاقت لديه الفكرة قبولا ، فقد كان يريد إيقاف نزيف الدماء بطريقة سلمية ..

قصد ابراهيم إلى معرض «السيراميك» الفسيح الذى يمتلكه المعلم فايز ، ويحتل مساحة واسعة أسفل أحد أبراجه .. التقى به فى حجرته الزجاجية المكيفة العطرة .. رحب به المعلم فايز الجالس إلى مكتبه الفخم ، وأمامه عود بخور متوهج القمة .. أخبره ابراهيم أن الحمام يهوى صريعا بطلقات بندقية صيد ، وحدد له مكان الشقة .. عرف من المعلم فايز أن بتلك الشقة سكانا جددا .. عجوزا وزوجها المقعد وابنها الشاب .. وأرسل اثنين من عماله الأشداء لاحضار الشاب والبندقية .. وقال وهو يقدم علبة من العصير لابراهيم :

— هل حدثك محمود فى موضوع البيت ؟ مازلت أريده .. سأدفع أعلى سعر ثمننا للمتر .. وسأعطيك شقة واسعة بأحد أبراجى فوق ذلك ..

— لقد جئتك من أجل انقاذ الحمام ..

— ألا ترى أن بيتكم يشوه منظر الشارع ؟ خسارة كبيرة الا تتحول هذه المساحة الواسعة إلى برج !
زحزح ابراهيم علبة العصير من أمامه ..

— كان بمقدورى اللجوء إلى القانون لانقاذ الحمام ..
ابتسم المعلم فايز ..

— القانون ؟! لن يفيدك القانون شيئا .. لم أقل لك أن ذلك الشاب يعانى من مرض نفسى ، وتنتابه حالات من الهياج والثورة ، فلا يدري ماذا يفعل .. عرفت ذلك من أمه ، وقرأت بنفسى الشهادات الطبية .. كل مايقدر عليه القانون هو مجرد تعهد وأنا كفيل بذلك .

□ الأبراج □

جاء الشاب ومعه بندقية صيد ذات منظار .. كان طويل القامة ،
وسيم الملامح ، يرتدى بنطلون جينز ، وقميصاً مفتوح الأزرار ، تبدو
منه فائقة مرسوم عليها صورة لطرب عالمي مشهور ، وكان يبدو
عليه الهدوء الشديد .. سأله ابراهيم بوجه دهش عاتب :

— لماذا تقتل الحمام ؟!

أطرق الشاب ولم يجب ، وكرر عليه السؤال ..

— لماذا تقتل الحمام ؟ أليس هذا حراماً ؟

رمقه الشاب بنظرة مستهينة وهب ابراهيم واقفاً ، وأمسك
بقميصه ، وجذبه إليه بقوة ..

— لماذا تقتل الحمام ؟!

نحى الشاب يدي ابراهيم بعصبية ، وقال وهو يرفع البندقية :

— ولماذا جعلت هذه ؟!

تدخل المعلم فايز ، وتحدث إلى الشاب ، وجعله يتعهد لإبراهيم
بعدم قتل الحمام ، وسلم الشاب البندقية للمعلم فايز اثباتاً لحسن
النية .. احتجز المعلم فايز البندقية لديه ، وأسندها إلى الحائط خلف
مكتبه ، وخرج إبراهيم راضياً ..



كان حزيناً لهجرة الحمام برجه القديم ، ولجؤته إلى الأبراج
العملاقة .. كان يراه على هوائيات الاستقبال ، والاطباق المقعرة ،
واسيجة الشرفات ، ولم تعد تصل إليه وشوشات الحب والحب .. قالت
له شقيقته أن الحمام يهجر أوكاره إذا افتقد الأمان ، لكنه يبقى دائم
الحنين إلى مكانه الأول ، ينتظر الوقت المناسب للعودة .. سر إبراهيم
لاكتساب ثمار الطماطم الخضراء حمرة خفيفة ، وأدهشه انبثاق
الأغصان من شجرة الرمان ، تحمل وريقات زهية الخضرة ، وأقبلت

□ الأبراج □

الأيام تبشر بعهد جديد من السلام، وآب الحمام إلى برجه، وانشرح صدر إبراهيم وأفعمه الأمل، وقال لشقيقته كالحالم: سأزرع الحديقة بأشجار الفاكهة.. سأزرع البرتقال والليمون والجوافة.. سيكسو الياسمين سورها، وتصنع أزهاره مظاهرة بيضاء، تضج بالعبير والجمال.



كان يطعم الحمام قبيل الغروب، عندما روعته صرخات شقيقته، ولاقتة جيهان على الدرج الخشبي وهى ترتجف.. وجد شقيقه يشتكي بالأيدي، ويتصارعان.. تدخل إبراهيم يحول بينهما.. اندفع محمود إلى الداخل وعاد بسكين.. أمسك إبراهيم بيد محمود حائلا بين السكين وصدر محسن.. صرخت الشقيقة، وأخفت جيهان وجهها بكفيها.. استرخت يد محمود وسقط السكين، وران سكون رهيب.. نظرت العيون الذاهلة إلى يد إبراهيم.. كانت تنزف بالدماء، وقد أصابها نصل السكين الحاد بجرح.. أسرع كريمة تكتم الجرح بعصابتها.. انسحب محمود خارج البيت منكس الرأس، واختفى محسن بالداخل.. حدق إبراهيم في الأشياء المبعثرة خارج الحجرة من ملابس وأحذية ومجلات وسأل أسوانا عما حدث.. أخبرته كريمة أن «محمود» يريد أن ينفرد بالحجرة، وطرد «محسن» منها، وألقى بأشيائه خارجها..

— هى حجرة واسعة، ومنذ ولدا وهما يعيشان فيها معا.. ألسنا نسميها حجرة محمود ومحسن؟
— ما عاد أحدهما يطيق الآخر!
— منذ متى؟
— يتشاحنان منذ غيبك السفر..
صاحت جيهان:

□ الأبراج □

— خالى ابراهيم يفر من مشاكلنا إلى الحمام .. متى أتزوج وأنجو من هذا البيت المشئوم ؟

تنازل ابراهيم عن حجرته الخاصة لشقيقه محسن ، وقرر أن يبني مؤقتا بالصالة إلى ينقل أشياءه إلى حجرته الخشبية فوق السطح ..

كانت ليلة كئيبة .. ظل ابراهيم مؤرقا ، متوترا ، متألما من جرحه . وأفاق من اغفائه قصيرة كأنها الغيبوبة ، وبدا كالمختنق .. أيقظ شقيقته بعد منتصف الليل ، وحكى لها حلما رآه ، انتهى إلى كابوس مفزع .. قال أنه شاهد أمه بجوار فسقية من الفسيفساء الملونة ، تتوسطها نافورة ينبجس منها الماء ، وتلفها هالة جميلة .. كان هناك حمام كثير حول النافورة ، وأمه تنثر الحب له .. كان الحمام يلتقط الحب ، ولم يكن الحب ينفذ .. وكان المصلون في ثياب بيضاء ساجدين تحت سقيفة ، كأنهم حجيح .. انهمرت طلقات الرصاص على المصلين بغتة ، وكانت تصدر من رشاش .. طار الحمام فزعاء ، وارتفعت الصرخات ، وسالت الدماء .. وهرولت أمه وهى تصرخ ، وغابت في الظلام.

قالت شقيقته :

— أقرأ الفاتحة لأمك يا ابراهيم ..

وقال ابراهيم انه سيذهب إلى القرية قريبا لزيارتها .. امتدت يد ابراهيم وتناول قرصا بعد تردد ، وكان أول قرص يتناوله ..



أشرقت الشمس على جثث الحمام المتناثرة فوق السطح والدرج الخشبي وأرض الحديقة .. راح ابراهيم يقلب في الجثث كالمجنون ، وهو يردد :

مذبحة بشعة !! قتلوا الحمام ! قتلوا الحمام !

□ الأبراج □

واجهش بالبكاء .. جمع الجثث في صندوق، وقصد في الضحى إلى معرض السيراميك.. دخله واجما.. دفع باب الحجرة الزجاجية، كان المكان خاليا، وكانت البندقية ذات المنظار ما تزال تستند إلى الحائط خلف المكتب.. رنا إليها، ثم غادر المكان، وخرج المعلم فايز من خلف الصناديق، وترددت أصداء ضحكاته في أرجاء المعرض..

حفر ابراهيم حفرة كبيرة دفن فيها الحمام الصريع.. وعاد يحدث في الأبراج ملتاوعا.. كانت تخرج من كل شرفة وكل نافذة ماسورة بندقية، وأصاب ابراهيم دوار، وخر مغشيا عليه..

أتاه الضابط المتقاعد، وأخبره أنه صدم بخواء برج الحمام، وسأله ماذا حدث.. أشار ابراهيم إلى الأبراج في صمت.. عرض الضابط شراء مابقى من الحمام ليكون في حمايته.. حدق فيه ابراهيم طويلا..

— لم يخلق الحمام ليوضع في سجن!

— نصحتك بالاحتياط فلم تستمع .. حمامك من سلالة أصيلة.. ربما كنت تحسن تربية الحمام، ولكنك لا تجيد حمايته والدفاع عنه.. سأله ابراهيم عن الحمامة المستردة، فأخبره مضطربا أنها ماتت بعد مرض قصير. وانصرف الضابط دون أن يسمع لأقدامه وقع على الدرج.

اكتشف ابراهيم سقوط زهرات السرمان الثلاث التي يعشق لونها الأحمر، واختفاء ثمار الطماطم، فاستبدت به الوسواس الليلية، وعاد إلى حمل الكشاف، وتوجيهه نحو الأبراج.. استقرت دائرة الضوء المتسعة على كهل يداعب صببة بالشرفة، واستشعر ابراهيم الحرج، وضغط زر الكشاف باضطراب ليسود الظلام، ثم أوى إلى حجرته الخشبية..



كان يتأمل البرج الخاوي، وبضعة أفراد من الحمام، تتطلع هنا

□ الأبراج □

وهناك بعيون حزينة، وكأن كلاً منها يبحث عن الفه الغائب، وكان يبدو عليها التوجس.. انتبه على ضجة، ووقع أقدام تكاد تحطم الدرج الخشبي، وداهمه المعلم فايز وعدد من الرجال يحملون المواسير الحديدية والعصى.

قال له المعلم فايز إن وجوده فوق سطح البيت قد أثار الشبهات من حوله.. وأن سكان الأبراج يرتابون في نواياه.. وأن برج الحمام ماهو إلا ذريعة، والحجرة الخشبية مرصد يراقب منه السيدات، وهن ينشرن الغسيل، ويجلسن بالشرفات في ثيابهن الشفافة..

— ألم تكن تسلط كشافك المريب في الليل على النوافذ والشرفات؟
لم يجب إبراهيم، ووقف مستسلماً، والمواسير والعصى تنهال في غل على الحجرة الخشبية، والسيدات يراقبن ما يحدث من شرفات ونوافذ الأبراج.. صارت الحجرة حطاماً، والفرن القديم..



وجد جثث ما تبقى من الحمام على السطح، وقد سال ريالها..
حدق في الأبراج كأن به مسا.. ونزل وقال وهو يجول بنظراته المرتابة في شقيقه، وجيهان:

— من الذى دس السم للحمام؟!

قالت شقيقته فى اشفاق:

— ربما كان وباء يا إبراهيم!

حدق فيهم بارتياح، وصاح فى حدة:

— وزهرات الرمان الثلاث، وثمار الطماطم؟!

لم ينج غير زوج من الحمام، كان قد تعلم الطيران حديثاً، وضعه إبراهيم فى قفص، وركب الأتوبيس، وقد اعتراه شرود وذبول.. نزل فى المحطة الأخيرة، وسار على شاطئ ترعة ذات ماء داكن آسن، تعلوه

□ الأبراج □

الطحالب الخضراء.. عبر جسرا خشبيا ضيقا إلى المقابر.. كان قبر أمه على الطريق تظله شجرة كافور.. قرأ الفاتحة وما تيسر من القرآن وانخرط في البكاء.. فتح القفص لزوج الحمام.. وقف فوق القبر لحظات.. ثم طارا، وأخذا يحلقان فوق المقابر..

اجتاز ابراهيم المقابر، ووقف مشدوها يشاهد البنايات العالية المتاخمة لها.. كانت الشرفات والنوافذ تطل على المقابر، وكانت هناك سيدات في ملابس شفافة ينشرن الغسيل.. وكانت هناك مقاعد تصف أمام إحدى البنايات، ومصابيح ملونة تزين الواجهة، وزغاريد تنطلق، وموسيقا صاخبة تأتي من كاسيت ضخمة.. استدار ابراهيم عائدا..



عاد ابراهيم لبيع البيت.. واتفق في ذات الليلة على الشروط مع المعلم فايـز.. وكان المقابل شقة واسعة فاخرة بأحد الأبراج، ومبلغا كبيرا من المال..

انتقلت الأسرة الى الشقة الجديدة.. وشاهد ابراهيم البرج القديم من شرفتها وهو يتهاوى تحت ضربات المعاول، والبلدوزر وهو يقتحم السور، ويكتسح أمامه شجرة الرمان وحقل الطماطم، ورأى انقراض البيت وهي تحمل بعيدا مع الذكريات على عربات النقل.. وسرعان ما حفرت الأرض، ووضعَت الأساسات، وارتفع برج جديد عملاق مكان البيت القديم..



وزرع ابراهيم الأنصبـة.. واختار كل من الشقيقتين أن يستقل بحياته، وأن يحقق أحلامه بعيدا.. اشترى محمود شقة وأقام «سوبر ماركت» وفعل محسن مثله، لكنه افتتح محلا لبيع شرائط الفيديو.. وعقد قران جيهان على مهندس الكترونيات يعمل بأمريكا، وأعدت أوراق السفر لتلحق به.. في يوم السفر اصطحبها خالها ابراهيم في

□ الأبـراج □

سيارته الخاصة.. كانت تجلس بالمقعد الخلفى كالحالمة.. وقالت شقيقته الجالسة بجواره: ما كان يمكن أن يأتى «جى جى» عريس مثل هذا لولا سكننا برجا عاليا!
وظل يقود السيارة صامتا..

عندما رجعا من المطار قالت له شقيقته وهى تتشنج:

— لقد صرنا وحيدين يا ابراهيم بعد سفر جى جى!

نظر إلى شعرها المصبوغ باللون الأشقر الذهبى، وإلى وجهها الذى تغطيه المساحيق، وإلى فستانها الأنيق، وابتسم بلا مبالاة واستغراب.. دخل حجرته، وأغلق عليه الباب.. خلع ملابسه، فبدا جسمه وقد ترهل كثيرا. ارتدى البيجاما ذات النسيج الأملس البراق، والتى تحمل على الصدر صورة لبطل سينمائى عالمى، عارى الذراعين، يقبض على المدفع الرشاش، مستعرضا عضلاته القوية، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة..

وفى تلك الليلة، مثل كل ليلة، عطر ابراهيم جو الحجرة المكيفة من علبة «الاسبراي» برائحة الياسمين، وامتدت يده إلى علب الأقراص الكثيرة المتناثرة فوق المنضدة.. اختار علبة، وابتلع قرصا.. وضع شريطا فى جهاز الفيديو، وأداره، واسترخى فى المقعد كالمخدور، وهو يمسك «بالريموت كنترول»، وأمامه رجلان قويان عاريان تقريبا يتصارعان فى شراسة.. يسدد أحدهما اللكمات إلى وجه الآخر.. يسقطه أرضا.. يسيل الدم من فمه وأنفه مخضبا بساط الحلبة، ومازال يركله بوحشية، ويضغط عنقه بحذائه، وذراعه مرفوعة فى زهو، والمشاهدون من حولهما يصيحون مشجعين.. بدأ أنه صراع حتى الموت، وابراهيم يحملق، ويقضم تفاحة حمراء فى تلذذ وبلادة.

□ الفـاز □

شقتهم. حتى باب غرفته. صك الباب فارتدت أعناقهم بحركة زنبركية إلى الشاشة. وثبتوا أعينهم..

جاءت البنت فالتوت نحوها الأعناق.. منكوشة الشعر كانت وملوثة المكياج.. ممزقة الملابس الخارجية والداخلية عند الصدر والأفخاذ. وعيونها حمراء من أثر بكاء. فالتقت نظرتهم.. ثبتوا عيونهم بدبابيس على وجه البنت. فأطرقت بعينيها فعادوا ينظرون إلى الشاشة. فجلست البنت وراحت تنظر إلى الشاشة.. فتصارخت البغاء!

مال على أذن زوجته وفرد كفه في امتعاض. فنظرت إليه.. فعاد ينظر إلى الشاشة فعادت تنظر إلى الشاشة.. فأطمأن قلبي..

لم أعد أخاف!!

الفـاز

« غا .. غا .. غا .. »

فمال السيد على أذن السيدة حرمه، ومط شفتيه في امتعاض وبسط راحته :

« ماذا تقول هذه المغفلة ؟؟ .. »

« تغوغىء ! » وقلبت شفتها ..

« م م م م م ! »

مطفأة عن عمد، كانت الصالة - عدا الشاشة - وصامته مثل ليل البرارى.. أماهم أى : السيد كميت، السيدة حرم السيد كميت، وابنتهما البيضاء الجميلة الآنسة طوفي كميت، فكانوا جميعا أمام الشاشة..

راحت تترات لاتينية أنيقة تتصاعد ببطء على الشاشة حاملة أسماء.. (ممثلين ومخرجين ومنتجين.. مهندسى صوت وإضاءة

وخدع.. مؤلف كبير.. وشركة توزيع عظمى) ثم كُتب فوق الشاشة ..
الحلقة ١٩١٧ ، مشاهدة ممتعة :
وجاءت ممثلة فتصارخت البيغاء ..
جاءت !!

رائعة الحسن كانت، ولها شعر وعيون خضراء ..
في صفرة البرتقال كان الشعر ويتهدل ..
خلف ظهرها استرسل كشلال من الحرير فتجمدت عليها الصورة!
مرت الصورة بلحظة من الخدر قبل أن تستعيد الوعي.. فتلفتت
الممثلة حولها بعينين ناعستين ثم راحت تخلع ملابسها.. بدأت
بمعطفها البنى الثقيل فتلوت داخله، ثم عضت شفرتها السفلى وهي
تستخرج منه صدرا ناهضاً كالقربة.. يقدم مستدقة موردة أخفت
حذاءها الكاوبوى تحت السرير في إهمال، ثم راحت تستحلب شفرتها
وهي تواصل التملص من بقية الملابس.. بعد قلقل أصبحت شبه
عارية.. حملت صدرها وأردافاً ، وهنا رابياً. ثم تسربت بالجميع تحت
الغطاء بجوار امرأة أخرى لها حلقات متشنجة !
لم يتعانقا ..
لم يتلاثما ..

وإنما اندست الأذرع.. أول ما اندست.. فغاصت مباشرة في كهوف
اللحم الدافئ الرخو حتى غابت الأكتاف ، فاندلعت صرخات شبق
عاوية ترج المكان.. وجاء محمد..

« محمد ! محمد ! لا يفوتك هذا المشهد يا محمد ! » ..

لا أعبد ما تعبدون

وكانت أثداء المراتين ترتعد كأربعة أفرع معذبة لشوكتين رنانتين،
فقال :

« ولكنت كنت تشاهد التليفزيون يا محمد ! » .. « طق ق ق ق !! » ..
 دخل غرفته وصك الباب فتسللت ببعضى وراءه لأرى ماذا يفعل !
 وببعضى الآخر، شاهدتها تتوجه إلى السيد كميت بنظرة باكية كليله
 تستنجد برجولته، كأنما تقول له « لقد طق ق ق ق عقل الولد يا أبا
 محمد ! » .. فربت على قلبها بنظرة حانية طويلة ، كأنما يقول لها.. « لا
 عليك .. سينصلح حاله فى القريب ! » بينما راح عقله يردد ، ويصرخ
 «لقد ضاع الولد يا أم محمد !!» ..

— ٢ —

أشاح الولد بوجهه ولحيته، قال : « لكم دينكم ولى دين ! »
 فاحتقنت عينا السيد كميت بالدموع وكز على أسنانه ، لكنه ابتسم :
 ولكتى أبوك على أية حال يا محمد ! » ..
 فأدار الولد ظهره ثم صدر عنه صوت — خُيل إلى السيد كميت أنه
 يصدر عن جهاز تسجيل — قال : « يا نوح إنه ليس من أهلك، أنه عمل
 غير صالح ! » فغادر السيد كميت الغرفة !
 يومها فى المقهى قال له الأستاذ باسيل (صديق طفولته) وهو
 يرمى حجرى النرد: «هذا زمان لا يعجبنا، أليس كذلك!!» فأطرق
 السيد برأسه «حقاً، جاء الزمن المعطوب!» ثم رمى حجرى النرد
 فالتقطهما الأستاذ باسيل، وغمغم..
 «رحم الله زماننا ! زمن الاحتلال.. من يهود، وأنجليز،
 وفرنساوية».. ثم مال إلى الأمام بابتسامة كبيرة منتشية « كان الزمن
 النبيل، أليس كذلك ؟! »..
 كقطة مباللة بالنوشادر، ايقظت العبارة عقل السيد كميت! رأى
 صديقه يتحدث كمن يلوك قطعة ممتعة من الحلوى (وبالفعل كان
 يلوك واحدة) فصمم أن يذكره..
 تطلع إليه بعينى طفل يقاوم النوم، وهمس:

□ الفـاز □

«كانوا يظهرون لنا العداوة!» ..
فغض الأستاذ باسيلي من بصره في مرارة وغمغم:
«الآن لا يظهرون لنا العداوة» .
فأطرق السيد وظل يسوى أوراقه في خمول ، ويلقى حجرى النرد
ويلتقطهما ويرشف من كوب الشاي ثم رفع رأسه:
«كانوا يشهرون مدافعهم الحديثة في وجوهنا!» ..
الآن لا يشهرون مدافعهم الحديثة في وجوهنا!!» ..
ثم أفلتت منه ضحكة قصيرة ومال على السيد كميت مشيراً إلى
أعلى العمارة التى يجلسون تحتها.. غمغم «فوقك مدفع، فهل تستطيع
أن تراه؟!» .. ثم قذف حجرى النرد فى غل، فطار أحدهما إلى الشارع..
غربت الشمس وحل الظلام، ثم خلت المقهى من الزائرين.. فرفع
السيد كميت والأستاذ باسيلي ظهريهما فى تأوه. وقد أرهقهما البحث
عن الحجر المفقود فى تراب الشارع..
تنهد السيد كميت. ثم رفع رأسه.. مغمغماً بصوت واهن:
«لقد ضاع الولد يا باسيلي!» وقلب كفيه.
«تصور يا باسيلي.. يقول لى (يا نوح) تصور!» ..
فراح الأستاذ باسيلي يهز رأسه على الجنبين فى تأثر. ويمط شفثيه
ممتعضاً ثم - فجأة- توقف عن ذلك!
اتسعت عيناه فمال إلى الأمام. وهمس:
«ولكن عفواً يا صديقى. ما اسمك الحقيقى؟!» فرسمت عينا السيد
كميت مع ثغره ثلاث دوائر مدهوشة ثابتة القطر، وهو يتطلع إلى
الرجل..
كان الأستاذ باسيلي قد أخرج من جيبه كيساً من الملح، وآخر من
السكر، وراح يضيف منهما إلى كوب الشاي الأسود أمامه ويقلب

□ الغـاز □

بقلمه.. ثم يتذوق بقرف شديد: «ذُق يا صديقى.. جرّب، إنها الموضة!»..

وكان يعبّ من كوب الشاي، ويتجرعه كالشربة بوجه مُغضن يحفل بالألم والاشمئزاز. بين الحين والآخر يرفع حاجبيه متظاهراً بالاستمتاع.. ويشرب!

ولما لم يستطع السيد كميت أن يهدىء من خفقات قلبه — وهو يتطلع إلى الأستاذ باسيلي — أو يوقف سيال العرق البارد الذى راح يجرى ويتجدد على جبينه.. جرى خارج المقهى هارباً بجلده.. ولم يتوقف إلا فى غرفة النوم!

— ٣ —

تبسمت السيدة حرم السيد من جانب فمها وهى تناول لطوفى الطبق، وغمزت بعينها «عندما تتزوجين يا طوفى. من سيحمل عنا الأطباق؟!» فسقط الطبق من يدى طوفى.. وأدارت وجهها فى استحياء وهى تبتعد..

«ماما، لا أحب هذا الكلام!»..

إلا أن رموشها كانت ترتعش وحة عينها تتراقص فى اضطراب، وهى تسبل جفניה على أغرب بريق عندما ذكرت كلمة: «تتزوجين»!

— ٤ —

الحلقة ١٩٤٨، مشاهدة ممتعة :

«آه سوزى!.. أوه.. أوه!.. بيتى هه! أه!! بيتى..»..

دخل طفل فتسمر عند الباب وفقد لونه، تتحنح..

حاول الابتسام وقال «هاى مام، هاى طانط.. ماذا تفعلان على

سريرى؟»..

□ الفـاز □

بصعوبة بالغة.. من خلال اللهاث والهنّات والتأوهات، قيل..
«اذهب يا جَيْفِر، اذهب.. اذهب الآن يا جيفر! اذهب.. اذهب..
اذهب..» فذهب!!

اللهم اجعله خير :

بعد الحلقة نام السيد كميت فرأى نفسه يضاجع الممثلة!
.. وحلمت طوفى بأنها تضاجع محمد..

— ٥ —

في الجامعة، وقف محمد وزملاؤه أمام سلم المدرج يعترضون
الطريق شاهرين العصي والمقشّات.. كان محمد يتكئ على مقشته
منفوخ الصدر تبدو عليه الزعامة!

«هش ش .. من هنا! هش ش ش.. أنتن من هناك!»..

«الطلبة تصعد من هذا السلم، الطالبات من السلم الآخر.. الكلام
واضح»..

«الكلام واضح».. «سيستمر هذا من الآن فصاعدا.. لا نحب
التكرار!» «أنتم تفهمون طبعاً من نعى! لا نريد التوضيح أكثر حتى
لا نخدش حياءكم!» «هش ش ش.. من هنا!».. هش ش أنتن من
هناك» «.. أحسنتم.. أحسنتم.. بارك الله فيكم!».. هش ش ش.. هش
ش ش..»..

— ٦ —

الحلقة ١٩٦٧، مشاهدة ممتعة:

في هذه المرة، دخل جَيْفِر فتسمّر عند الباب، لكنه لم يتنحى، قال
في جراءة: «هاى مام. هاى طانط، ما الذى تفعلانه على سريرى؟!»..
فقال ..

«اذهب يا جَيِّفر !»..

فلما لم يذهب زجراه.. زجراه بعنف، وبصقت إحدى المرأتين على وجهه فانكفاً أرضاً، وارتطم رأسه بالحائط ف..
فاستعاد الذاكرة !!!

— ٧ —

في الجامعة، كانت الجدران ترتج..

«يجب أن نقتص من حربي.. يجب!»..

فجاءت الشرطة وأغلقت البوابات وأخلت الأحياء المجاورة.. ثم جاءت عربات خضراء داكنة وراحت تتقيأ جنوداً لهم نبابيت.. وضباطاً لهم أجهزة اتصال.. وأكوام عالية من الحجارة لها سنون.. و..

«يجب أن نقتص من حربي.. يجب!»..

فبرز محمد وزملاؤه، وراحوا يضربون المتظاهرين بالمقشاة!
في البداية، حاول محمد إقناعهم أن حربي رجل طيب ففشل، وبصقوا على وجهه.. قال لهم محمد أن حربي لما أحس الجوع راح يأكل من قريته «وكلوا من طيبات ما رزقناكم» لكنه لم يشبع فقدموا له الطعام وقالوا له غداً تفرج يا حربي « فأكل أكل لكنه لم يشبع ، لم يشبع .. فأكل القرية التي تليه حتى يشبع.. «يا غلام كل مما يليك!» وفي هذا توفير للوقت والجهد وتكلفة النقل وعناء السفر إلى الأماكن البعيدة!

كانت كرة اللحم المتظاهرة قد تمددت ونبت لها زوائد عديدة، وتحولت إلى أميبا بنية عملاقة مدت أحد أذرعها فابتعلت محمد ورفاقه، ثم راحت تهضمهم!.. ثم مدت ذراعاً أخرى متراخية محاذرة تتحسس بها البوابة، فاندلعت النبابيت تنغرس في الذراع وتفجر منها الدم..

لم يضع محمد الفرصة، فتسرب مع زملائه من الخلف متجاوزين الجسم الأميبي الهاتف العملاق واحاطوا بإحدى العربات الخضراء الداكنة.. ضربوا السائق على رأسه ففقد الوعي وجلس محمد مكانه فالتف رفاقه من حوله وراحوا يهللون ويكبرون، ويتوعدون النظام، والعميد والشرطة، ومجلس الأمن، والكافرين! لكنهم وقعوا في مشكلة: (لم يكن محمد - أو أى من رفاقه - يعرف القيادة!) فصرخت أجهزة الاتصال في آذان الضباط بأمر صارم مختصر: «دش رؤوسهم!» فاندلعت النار..



وفي المقهى، هبَّ السيد كميت من مجلسه، وهوى بكفه على وجه الأستاذ باسيلي:

«أنت لص يا باسيلي!.. أنت تقرر الزهر!..»

فنهض الأستاذ باسيلي مشدوهاً، وهو يتحسس أثر الصفحة المؤلمة على خده غير مصدق.. فجاء رجل من المنضدة القريبة وأدار ذقن السيد كميت في هدوء:

«لماذا تضرب هذا الرجل أيها السيد؟؟»..

فألجم لسان السيد كميت وبسط راحتيه أمامه وهز كتفيه في لامبالاة مستعداً لشرح موقفه، إلا أن الصفحات سبقتة وراحت تطرقع على أجزائه من كل اتجاه.. وترن في المقهى وكأن أحدها صدى للأخرى، فجرى السيد كميت هارباً بجلده من المقهى.. ولم يستقر إلا في غرفة النوم!



وفي الصباح، قام السيد كميت فصرى الصبح خمس ركعات، واستغفر الله وهو ساجد على ما بدر منه ليلة أمس في حق صديقه الطيب.. ثم فتح التليفزيون ليعرف الأخبار، فوجد حربى مكوماً على

□ الفـاز □

الأرض، والصفعات واللکمات تطرقع على رأسه وأجزائه من كل اتجاه.. وترنّ وكأن أحدها صدى للأخرى.. فتدلت فكه السفلى، وظل ينظر إلى الشاشة في بلاهة طفل رضيع!



الحلقة ١٩٩٠، مشاهدة ممتعة:

في هذه الليلة كان الغطاء يتعذب..

ينبج ثم يتخذ.. يتلوّى.. يعلو.. ثم ينخفض.. يمارس انقباضات وانبساطات متتابعة ثم يهدأ، فيتمدد.. ثم يتكور، وينقبض، وينبض.. ويظل ينبض. فيصرّ السرير وتصطفق ألواح الخشبية و.. أما اللهاث فكان عالياً صاحباً هذه الليلة.. وقد بلغ أرقاماً قياسية يصعب تحقيقها فوق أى سرير آخر، فدخل جيفر..

دخل

كان يحمل صينية فضية شديدة الفخامة، يستقر فوقها كوبان كريستاليان شديدي الأناقة.. بكل منهما مرشقة بلاستيكية شديدة البياض، فانحنى أمام السرير..

كان الغطاء متكوراً فلم يرهما.. قال:

«هاى مام، هاى طانط.. عصير؟؟» فبرزت الأيدي فاختطفت الأكواب ودخلت بها تحت الغطاء. ثم سمع جيفر صوت المرأتين يجرعان.. يجرعان بصوت.. صوت عال لا يُحتمل، فحشر أصبعيه في أذنيه حتى اختفيا تماماً. وزمّ عينيه.. وكزّ على أسنانه متألماً بشدة و.. وعندما تجشأت المرأتان، ثم عادت الأكواب فارغة بدون شكر.. انحنى يتلقى الأكواب الفارغة على صنيته بابتسامة واسعة ممتنة.. كأمر نادل - ثم استدار مغادراً:

«باى مام. باى طانط.. استمتعا بسريري!»..

— ٩ —

عند السَّحَر، رأى السيد كميت نفسه مُسجّى على بلاط الصالة..
كلهم جثث! أحس بلزوجة الغاز السام تسد مسالك رئتيه بكفاءة
الغراء السريع..
اختنق ..

راح ينظر حوله بعيني طفل يقاوم النوم، مفتشاً عن ذلك الثقب
الصغير.. الصغير.. الذى منه، كان كل الغاز يتسرّب طوال الوقت!
وعندما سقط رأسه كالحجر: أنشقت الأرض، وابتعلت منزلهم..

— ١٠ —

وقفت الفتيات أمام الكاميرة ينظرن حولهن كأنهن على وشك
الانفجار بالضحك بينما تصلب الفتيان داخل ملابسهم الشتوية وقد
زموا شفاههم:

«آه.. أعرف طوفى.. كانت محبوبية عند الجميع».. «آه.. كانت
مؤدبة، لا تكلم الفتيان».. «آه.. لقد شاهدنا المجرم وهو (...) الأنسة
طوفى تحت شاشة العرض، ولكن الظلام كان مشكلة فلم نستطع
الرؤية جيداً!».. «آه لقد قمنا لنجدها بالطبع، ولكن كان المجرم
يشتبك معها بطريقة يصعب فكّها، وكان الظلام مشكلة فلم نستطع
الرؤية جيداً»..

«إنه ليحزننى أن توجهوا لى مثل هذا الاتهام المشين .. صحيح
إننى عاطل ، ولكننى لست منحللاً على أية حال ! .. لا ، لست متزوجاً ،
ولكننى أجد كفايتى وزيادة فى زيارة السينما .. فالأفلام دائماً ممتعة .
نعم ، لقد حاولت التمثيل ذات مرة ولكن المخرج لم يوافق .. لو كان
وافق كنت اختلفت جذرياً الآن ، ولكنه لم يوافق ! .. لا .. لم تعد هناك
مشكلة الآن ، فلقد جاء منذ قليل بصحبة أحد المنتجين ليوقع معى

عقدا .. لبطولة فيلمه القادم .. كان ذلك أمام الضابط» « نعم ، لقد وقع معه عقدا » .. « هذا زمان لا يعجبنا ، أليس كذلك ؟! .. » « حقا ، جاء الزمن المعطوب »! .. « طبعاً ! إننى سعيدة بالطبع لأن مدرستى سيصبح اسمها مدرسة (الأنسة طوفى) فهى صديقتى .. أحب أن أسمع طحاوى ! » .

« فى نظر الطب ، ليست هناك مشكلة .. بإمكانى أن أجرى عملية بسيطة للفتاة المنكوبة — بلا أتعاب — لتستعيد عذريتها وذلك فى عيادتى الخاصة : بشارع ب. د. تليفون ٩٢٩ ثلاث أربعاء ستة .. لا ، أننى أحب الدولة ولكن تليفون عيادتى هو ٩٢٩ ثلاث أربعاء ستة ! أى أغنية لطحاوى .. » .

« استرخ يا جيفر .. أنت نائم الآن .. حاول أن تتذكر ! » .. « هم م م ! » .

وبدأت النقود تتدفق على طوفى .. مئات التبرعات كل يوم .. وآلاف العروض بالزواج : صعاليك .. ورجال مجتمع .. لصوص ، وأثرياء .. فنانين مشهورين وكتاب .. فقلبت طوفى شفتها ، وهى تقشر التفاح : « لا يعجبنى أيا منهم !! » .

وانتقلت العائلة إلى منزل جديد يطل على النهر ، بحديقة واسعة وسلالم متحركة .. بينما هام السيد كميت على وجهه يجوب المقاهى ويسأل البشر عن الأستاذ باسيلي ، وعن حجر النرد المفقود .. هل عثرت على الحجر المفقود أيها السيد ! « بلاوى ! » .

بينما ظهر المجرم فى أول أفلامه على الشاشة : « آه ! فيفى !! آه ، آوه ! عبده !! »

فمالت طوفى على أذن أمها وهى تهمس « ماما ، هذا هو الذى ... » فابتسمت الأم ولكزتها فى جنبها وهى تغمز ، هامسة : « فى جمال القمر يامضروبة ! » فاستحت طوفى وضحكت بصوت منخفض .

وقلب المسئول الكبير شفته فى امتعاض أمام الكاميرة وهو يلوح بكفه « إننى أتعجب من تعاطفكم الزائد مع الفتاة واهتمامكم

□ الفـاز □

بالقضية.. بينما التحريات التي وصلتنا تثبت أنها سيئة السير والسلوك ! » .. « عندما يجيء الضابط من هذه الناحية ، فتوكل على الله ! » .

« هم م م .. قالتا لى تعالى يا جيفر نم معنا .. فرفضت .. قلت لهما ، لا أريد أن أنام الآن ! فأعطينى جروا صغيرا وملابس رعاية البقر ، وشيكولاته لذيذة ! » لماذا رفضت يا جيفر .. تذكر ! » .. « ذق يا صديقى .. جرب .. إنها الموضة ! » .

« لقد جاء الضابط من هذه الناحية يا شيخ محمد ، فهل أتوكل على الله ؟ » .. « توكل ! » « تصور يا باسيلي ، يقول لى (يا نوح !) .. » .. « لماذا تضرب هذا الرجل أيها السيد ؟ » .

« لا أعرف .. لا أعرف .. ولكن إحدى المرأتين كانت جميلة جدا فأحسست أنها ليست أمى .. أما الأخرى فكانت لا تشبهنى على الإطلاق !! » .

« سيمر الأتوبيس السياحى من هذا المكان الساعة العاشرة .. عندما يمر ، توكل على الله ! » .. « الآن لا يشهرون مدافعهم الحديثة في وجوهنا ! » .

« هش ش ش .. أنتم من هنا ! هش ش ش .. أنتن من هناك » .
« لقد مر الأتوبيس من المكان يا شيخ محمد .. فهل أتوكل على الله ؟
« توكل ! » .

« كان الفراش دافئاً وعطن الرائحة فقلت لهما : لا أريد أن الآن، فقبلتنى ! ..

قلت : سأقوم لأكل بعض الشيكولاته .. إننى أحبها ، فدبرجليها طوقا حول وسطى وضغطت فتأوهت .. قلت سأقوم مع الجرو .. سألعب مع الجرو إننى أحبه ! فراححت تعتصرذ ثدييها فصرخت .. صرخت .. قلت : لا أريد أن أنام الآن .. لا أ، فالتقطت شفتائى بفمها وراححت تمضغ .. راححت تمضغ .. بينما الأخرى كانت تفعل أشياء غريبة .. ففررت منهما مخافة أن يأ.

كما أكل الشيكولاته !

« فوقك مدفع ، فهل تستطيع أن تراه ؟! » .. « أنت لص يا باسيلي !
أنت تقررص الزهر ! » .

« جيفر .. ما اسمك الحقيقي ؟! » .. « ولكن عفوا يا سيدي ..
ما اسمك الحقيقي ؟! » .
« اسمي جعفر ! » .

كانت الأم تكوي فستانها الأحمر « ماذا تقول هذه المغفلة
يا طوفى ؟! » فقلبت طوفى شفتها « تغوغى ! » .. « م م م ! » .. (ولكنها
لم تكن تغوغى) .

« هل رأيت حجر النرد المفقود أيها السيد ؟! » لا للأسف لم أره أيها
السيد .. ولكن هل رأيت المدفع ؟! لا للأسف لم أره أيها السيد ، فأنا
أبحث عن باسيلي « وأنا أعد المدافع ! » .

وفي الشوارع .. الميادين .. وداخل البيوت ، كانت أغنية طحاوى
الجديدة ترف مع الهواء فيتتنفسها البشر ويتمايلون مع الإيقاع ..
كانت كلماتها تقول :

طوفى طوفى - هكذا طوفى - لم تتغير
كل الأشياء كل الأشياء تتغير ولكن
طوفى ثابتة لا تتغير
وإن كانت تغيرت - طوفى - فإنها
قد تغيرت حتما إلى الأحسن
ومن له رأى آخر ..

فليشرب من البحر ! .



وفي القفص ، ظلت ببغاؤهم ترفرف وتتصارخ وتنقر الحديد ..
كانت تقول طوال الوقت « غاز ! غاز ! غاز ! » ولكن ..
لا أحد يفهم .

ممتع جداً أن تنحنى ، وتقلب تضاريس وجهك
بشكل درامى مؤثر مناسب تماماً لقيمة المبلغ الذى
سينطلق من فمك كقنبلة تختبئ في آخر الجملة التى
استغرقت وقتاً طويلاً في صياغتها حتى تحوى القدر
الكافى من المسكنة المدهشة والدافعة حتماً إلى المراد ،
ويمتلئ وجهك بخليط عجيب من الأسى والشجن
وابتسامات الإمتنان المرطبة للجو، والمطبوخة جيداً فوق
مرآتك المكسورة ، وشعر ذقنك الذى لا بد أن يكون نابتاً ، ثم تأتى
لحظة الذروة سريعة جداً ، ربما أسرع مما تتوقع مثل ابن البدو الذى
مارس الجنس لأول مرة في حياته ، وبمجرد أن لامس يدها نهدي المرأة
انتهى كل شيء ، وضحكت المرأة كثيراً ، ولعنت كبير قبائل البدو ،
واليوم الذى فرّوا فيه من وهج الصحارى إلى ربيع المدن !!
لا تضطرب وحافظ على درجة التهديد في صوتك ، وأنس تماماً
وهدة الصحراء « وعنطرة » البدو فشموخ العمارات قادر على إقناعك
بأن تميز البدو محض هراء ، وأن الصوت الخفيض أجدى كثيراً من
الصوت العالى الذى لا يناسب سوى مضارب الخيام ، وأن الذل صفة
ليست سيئة السمعة كما يظن البدو ، وانطلق الجملة حسب آخر
صياغة توصلت إليها في تمريناتك عليها، وأنس تماماً الشخص -
الضحية - الذى ستقترض منه ، أنفقه تماماً ، وابعد عينيك عن عينيه ،
وتعامل مع الجملة كأنك تهمس بها لنفسك داخل حجرتك المغلقة جيداً
(أريد عشرة جنيهات حتى أول الشهر) ، لا داعى من (حتى أول

□ مسألة بسيطة □

الشهر) هذه ، فربما كنت في أول الشهر فعلاً ، وربما الباقي على أول الشهر أيام قليلة تخجلك حين تراه مرة أخرى ، ولا تسمح لك بالفترة الطويلة المريحة النافسة لفكرة السداد من الأساس . إياك أن تنهور ، ويصيبك الملل من كثرة تدبيج الأعذار ، فهذا ينسف كل شيء ، ويقلب لحظات نشوة الاقتراض إلى ساعات ذل ومهانة تدوس بحجمها الضخم فوق قلبك ، وترغمك على عدم الخوض في طريق الاقتراض الممتع مرة أخرى . وحاول - بقدر المستطاع - أن تكون أعذارك حتمية وملحة وضرورية لا تحتمل التأخير لحظة واحدة ، كأن تكون على سفر إلى نجع البدو في القطار المتحرك الآن وقيمة المواصلات بالاضافة إلى علبة السجائر عشرة جنيهات بالضبط ، أو أن إيجار حجرتك ينقصه هذا المبلغ ، وأن صاحبها اللئيم سيطردك منها . مهم جداً أن يكون العذر محددًا لقيمة المبلغ بحيث لا ينقص مليماً واحداً ، ولا تكن غشياً كما البدو وتذكر الجوع تحت زعم أنه لا يؤجل ويحمل قدراً أكبر من المسكنة المؤثرة ، فالجوع لا يتناسب تماماً مع العشرة جنيهات ويكفيه نصفها أو ربعها ، وربما يفعلها ضحيتك ويعزمك على « سندويتشين » فولا . وينتهى كل شيء وتصاب المؤامرة في مقتل .

أكد على وعدك بالسداد مرات عديدة ، حتى يطمئن ضحيتك ، ولا تقترب من مقولة البدو (الحُرَّان جاع نَهب) فهي لا تناسب سواهم وتموت أمام أول ماكينة تذاكر في « مترو » الأنفاق .

أعرف أن مسألة الأعذار ثقيلة ومملة ومراوغة ، تغريك سهولتها وأنت تعددها في حجرتك حتى تصبح قوية حين تطلقها على أذن ضحيتك ، ولكن عند لحظة المواجهة ، وفمك مصوّب على أذن الضحية يبطل مفعولها تماماً ، وتتحول إلى أسلحة فاسدة .

ولكنك لا تقلق فهذه الأعذار أو الأسلحة مهمة مع التجارب الأولى

□ مسألة بسيطة □

المراهقة ، وتذهب أهميتها مع رياح الدربة والدراية بدروب التجربة ، عندها تصبح أكثر جرأة في التعامل مع الموضوع في منتهى البساطة ، وتتمايل الجملة على لسانك في زهو هكذا (أريد عشرة جنيهات) فقط ، ولا تضيف كلمة واحدة .

الشيء المهم الذى كان يجب تحديده منذ بداية القصة هو أن يكون ضحيتك رجلا كامل الرجولة ، وحاذر أن تكون امرأة حتى لا يشمت البدو ، واحرص على أن يكون قصيرا بالقدر الذى يجعل وضع فمك في أذنه مريحا جدا ، وييسر لك وضع يدك على كتفه بحنان وشوق شديدين ، فداخل هذا الوضع لا يبقى له مفر سوى أن يضرب يده في جيبه ، ويخرجها بسرعة مدهشة ، تطمئن عليها ابتسامة وجه أبى الهول التى هى لك وحدك !!

فاجأنى طابق جديد، يعلو الطابق الأرضى.
وأدهشنى أن الفيلا، التى اختزنتها الذاكرة منزوية
فى ذلك الموقع البعيد - منطفئة فى لون الطوب الأحمر،
والسياج الحديدى الصدىء، محاطة بالرمال، بلا
تفاصيل معمارية - ارتفعت واتخذت ملامح القصور،
وعمرت بالتشكيلات والفراغات والألوان، حتى أننى
سألت، لأتأكد من مقصدى قبل أن أقرب من الباب.

نظر إلى حارس الفيلا المجاورة بارتياح، وأنا أخبره بأننى ابن
الفقيد. وعاد الرجل - بعد أن فتحت باب حظيرة السيارات - يستطلع،
واقرب أكثر، يتفحصنى، وأنا حائر بين فضوله المتشكك والمفاجأة
التي كانت تنتظرنى فى ذلك المكان المظلم الرطب.. ثلاث سيارات، لم
أستطع - لشدة قدمها - تحديد هوياتها. وكان الرجل مستمرا فى
التحديق إلى وجهى، وكان يتمتم: سبحان الله.. سبحان الله! فقلت إنه
يحاول استثمار الموقف، كالعادة، من أجل النقود، أو ربما كان يحاول
أن يعبر عن مواساة حقيقية. أعطيته بعض النقود. أخذها وانصرف
يواصل تمتماته.

شعرت بالحزن، لأول مرة منذ ملابسات الوفاة، حين دخلت من
الباب الخارجى فدهمنى تعدد التفاصيل فى المساحة الكبيرة المحيطة
بالمبنى.. كنت أحسبها شريطا ضيقا يلى السور، ويكفى - بالكاد -
لغرس صف من الأشجار، ولكننى وجدت حديقة متنوعة المزروعات
تحيط بالفيلا، وحمام سباحة كلوى الشكل، تعطن مأوى، وحوله
مظلة ومقاعد خيزرانية بيضاء.

□ أهلا يا باشا □

صعدت الدرجات الرخامية القليلة، وفتحت الباب الخشبي الثقيل، فاستقبلتني قاعة غنية بالآثاث والمفروشات والستائر والثريات والجداريات.

وجدت حجرة النوم القديمة كما هي، لم يغير موقعها، وإن تبدلت الموبيليا والمفروشات، وطغت عليها ألوان صاخبة. وعاودني شعور بالأسف، مختلطا بالحزن، حين اكتشفت — للحظات — أنني لم أكن إيجابيا أمام عناده، وتركته يختار عزلته، ويسقط ميتا وهو يتجول في سوق للمهملات، ويبقى جثمانه مجهولا في ثلاجة المستشفى، حتى عدت.

وكانت خطتي أن ألقى نظرة على الطابق العلوى، قبل أن أغادر الفيلا. كانت القاعة، على وضعها القديم، تبدو كصاله كبيرة في شقة، لا صلة لها بما فوقها، هل ثمة سلم بالخارج؟ خرجت لأتأكد من أنني خلال تفقدي للحديقة لم أجد سلما للطابق العلوى. كانت النوافذ العليا مغلقة، كأنها لم تفتح من قبل.

عدت للقاعة متمهلا، أحاول — من خلال خبرتي الطويلة به — أن أصل إلى مرمى تفكيره في اضافة طابق — لم تكن له به حاجة أو ضرورة — ويسد الطريق إليه، فيتركه لى بلا سلم! كأنه يرسم لغزا لم يهتم بأن يحكيه لى فى زمن مضى. ولما أضفت الأمر إلى سلسلة ماصدر منه فى السنوات الأخيرة من أمور مستهجنة، توارت الحيرة. وجلست أشعل سيجارتى، تشاغلنى فكرة طارئة، أن أحتفظ بالفيلا، وأقيم لها سلما، واستبعد فكرة البيع. كان لددى — فى الأيام القليلة الماضية — هاجس غامض يتحدى إرادتى فى التخلص منها، بالرغم من أنني كنت أردد أمام الجميع: ما حاجتى إلى مبنى كئيب صممه هو وبناه بنفسه؟! ..

.. لنتغاضى عن عيب السلم الداخلى، وعن أشياء أخرى لا تحتاج

□ أهلا يا باشا □

إلا المراجعات بسيطة: صراحة الألوان وزعيقها.. تداخل المكونات
وازدهامها..

واجتذبتنى حجرة النوم لأتوقف أمام محتوياتها مرة ثانية..
خليط من قطع الأثاث، متنافرة، مغيبة في غيمة من غموض. استقبلنى
مقعد خيزرانى هزان، يميل ظهره المشغول بالخوض إلى الأمام، كأنما
كفَّ عن الحركة حالا. وفي الصدارة، سرير معدنى أسود، تتميز
شخصيته بأعمدته الاسطوانية المحلاة بوصلات من النحاس الأصفر
له لمعة طازجة، وشباك يواجه الداخل، يرتفع مستوى الفراش كثيرا،
وتغطيه مشغولات من القصب تشبه الأرابيسك، وتنسدل عليه شرائط
من أقمشة رقيقة، فيما يشبه الإهمال. وجعلنى ذلك كله أنقبض،
كأننى أواجه ضريحا.

دارت عينائى مع الحوائط الأربع، وتوقفنا أمام المغطى تماما
بستارة ثقيلة داكنة الزرقاء، فيها تموج مضطرب، كأنها أعدت
للإختباء.. فهل يكون وراءها منفذ إلى السلم الغائب؟

أزحتها عند المنتصف، فاستجابت فى سهولة، وكشفت إطارا كبيرا
لصورة ضوئية لفخذين كجبلين يملآن وجه الصورة ويخفيان بقية
تفاصيل الأنثى خلفهما.

كنت أهز رأسى، محاولا كبج انفجار الضحك، ولعلنى كنت أردد
بعض الكلمات مأخوذا بما كانت تخبئه الستارة. ولكنى لم أتحرك من
مكاني، ولم تكتف عينائى بالنظرة التى اكتشفت، بل إننى جلست أمام
الصورة، وخليط من المشاعر بينها البهجة — يجعلنى أبتسم
وأستشعر وهجا دفيئا لم أفلح فى التنصل منه أوفى محاذرتة، ونبوءات
من المتعة تحتشد تغالب توجهات الواد.

وكان فادحا أن ينتهى كل ذلك، منتهكا بالصوت القبيح الصادر
عند فتحة الباب:

□ أهلا يا باشا □

أهلا .. يا باشا !

لم يكن صوتها، فقط، هو القبيح. بها ما يشبه التحفز. كانت تقترب لترانى أكثر. لم أسأل من أنت وكيف دخلت، لأن دهشتى كانت أكبر.. كانت فى رداء الحمام، وشعرها مبلل. وكانت هى التى قالت: ما أشد شبهك به! فأدركت أنها تعرفه. قالت: تأخرت كثيرا.. كنت فى انتظارك! وكان يجب أن أعرف: هل أعرفك؟

خطت، مطمئنة، إلى خلف ساتر فى الحجرة المتسعة، وضحكت فى ثقة، تظهر أنوثة خافية تمطت فى رنين وطول ذيل الضحكة. قالت وهى تبدل ملابسها: عرفتني قبل أن ترانى..! وامتد اصبعها يشير إلى الصورة، وقالت: كنت تتأمل في منذ لحظات! وعادت تضحك.

قلت : لا يمكن أن تكونى زوجته!

أسرعت تحدد، فى بساطة : بل محظيته!

وكانت تحتاج إلى تحديد أكثر : أيهن؟

ردت، بنفس الهدوء والبساطة، وإن شابهما درجة من تحد: عرفتني كلهن، من كن قبلى، ومن مررن بى.. ولكننى أنا التى بقيت! وخرجت من خلف الساتر فى ملابسها، لتشعل سيجارة، وتتحرك خطوات قليلة لتقف فى مواجهتى، وكنت لأزال محتفظا بجلستى، وقالت هى تمثل انحناءة: لأكون فى شرف استقبالكم!

قدمت لى سيجارة. رفضتها، وأشعلت واحدة من علبتى، خرجت بها إلى القاعة. جلست، وكانت فى اثرى، تحتل مقعدا، وترفع ساقا فوق ساق. قالت: أنا أعرف عنك كل شىء، وأنت لم تسألنى - حتى - عن إسمى!

استوقفتنى، للحظات، فكرة أنها، فى مجملها، ليست بشرية.. كيف،

□ أهلا يا باشا □

ومن أين تواجدت فجأة، وتخللت - هكذا - كل هذه المساحة، هونا،
وتجلس أمامي مسترخية تسحب أنفاس الدخان.

قلت : اسمك ستحتفظين به، لأتني سأراك، بعد دقائق، لآخر مرة،
وأنت تحملين حقائبك مغادرة!

لم يبد على وجهها أنها انفعلت. رفعت يدها التي تتعلق السيجارة
بين أصبعين منها، وقامت متشامخة، متهادية، لتواجهني واقفة، ثم
تدور حول مقعدي، وتعبث أصابعها بشعري. تساءلت في ليونة:
أهكذا يخاطب الأولاد أمهاتهم؟

تلقت لطمتي الخاطفة. ثابتة، كأنها توقعتها. ولم يتأثر صوتها،
بنفس الليونة واصلت: أو، من في مكانة أمهاتهم؟!

لطمتها ثانية. صاحت: في خدمة فراش عجوز عريبي.. على الأقل!
لطمتها الثالثة: ثم تتالت لطماتي، حتى انهارت. سقطت تحت قدمي،
وقامت تتشبث بساقي، وفي جسمها انتفاضات. رفسنها أتخلص من
تعلقها. أنصال أظافرهما تصل إلى جلدي. تحركت أبتعد، لأخرج من
دائرة الهوس. ظلت مستجوزة على ساقَي، وأوشك قماش بنطالي أن
يتمزق. كانت تزوم، ورفعت إلى وجهها فيه نشوة مرعبة. أفلتت ساقا
لتشير بيدها إلى حائط قريب. غاب عني، وسط ازدحام المكان
بالأشياء، أن ألتفت إلى مجموعة من السياط معلقة على الحائط. وكانت
يدها لاتزال ممدودة إلى الأمام، وسبابتها تشير إلى حلقة السياط
يتوسطها رأس غزال، ووجهها القاني يعرق، وعيناها شبه مغمضتين،
ترتفعان إلى في رجاء.

لم أكن غير مدرك.. كنت غير مصدق، واكتنفتني الذهول تماما وأنا
أراها تدخل في موجة صراخ، وتفلتنني وتشق ثوبها بيديها، فيتعري
جسمها المكتوى بخطوط طولية داكنة.

تركت نفسى أسقط فى أقرب مقعد، أخفق فى تثبيط كهارب الانفعال فى رأسى، وبى خوف شديد لخلو جيبي من شريط حبات الدواء. كان الواجب أن أخفف من توترى فألجأ إلى استراخاء طويل، ولكن ذلك كان مستحيلا أمام الحقيقة الماثلة أمامى فى دائرة السياط على الجدار، والجسد الممزق فوق السجادة.

صحت فيها أن تنهض وتمضى من أمامى. تحركت، أخيرا، وقامت متباطئة، لترتمى — مهيضة — فى مقعد. تماسكت، بعد قليل، واعتذرت أولا، ثم قالت: رأيت؟!

قلت : لامعنى لأى كلام الآن.. قومى وارحلى.
قالت : لن أرحل. قلت، ضجرا: أرجوك.. هذا يكفى.. لا أريد أن أراك هنا.. خذى ماتشائين و غادرينى..

اعتذلت، غير عابئة بعريها: لم أنتظر لتعطينى أنت.. لقد أخذت!. ولما وجدتني أنظر فى عينيها متشككا، واصلت: نعم.. أنت الآن ضيقى، فى مسكنى!

قلت : رأيت شذوذك، وجنونك — الآن — يتأكد لى!
ردت : هذا ما فعله بى العجوز.. ألا أستحق ما يقابله؟
حاولت أن أقول هادئا: هذا بيتى.. أنا وريثه الوحيد..
فصاحت هى: وأنا أقول لك: أنا مالكة هذا المسكن.. واحتفظت بما لا يخصنى:

كانت واثقة، وعادت إلى التدخين، وأكدت: لدى الأوراق موثقة..
والمحامى موجود، يمكنك مراجعته..

غرقت فى صمت بئر المفاجأة، أحمل رأسى المتثاقل بين كفى، أحرق فى امرأة شبه عارية، تجلس أمامى راسخة، وتصنع ساحابات من الدخان وساحابات أخرى، غير مرئية، من روائح نفاذة لهورمونات الأنثى.

□ أهلا يا باشا □

تراجعت، بصعوبة، عن التدهلز فيها، وشاركت هي، بصوتها، في إبعادى عن بقعة تتحرك رمالها.. قالت:

- حين رأيته تنظر في صورتي، أردت!

قلت، مغلقا بوابة الريح الصافرة: تأكدى أننى سأراجع كل شىء، ولن أدعك تأخذين كل شىء.. لمجرد..

قالت: تأكد أن القسمة عادلة.. ستضيف أرصدته إلى أرصدتك.. ونصيبك هنا في انتظارك..

وأشارت إلى الطابق العلوى..

قلت، أنهى مواجهتها : أين السلم الصاعد إليه..

انقلبت مقهقهة، وأخذت تسعل، ولما هدأت، أخرجت مفتاحا من جيب بفستانها الممزق، ألقت به إليّ، ثم قامت وقالت: إتبعنى. فقممت وتبعتها. عادت إلى القهقهة ونحن نغادر القاعة. دخلت إلى حجرة النوم، وأزاحت ستارا ثقيلا، فظهر باب مغلق..

قالت : خذ طريقك إلى نصيبك من ميراث أبيك!

غادرت الحجرة، وتركتنى أفتح الباب وأدخل إلى ممر مظلم ثقيل الهواء. تحسست طريقى حتى عثرت على بداية السلم. سمعت صياحا: سأنير لك المكان. ورأيت السلم، وكنت عند منتصفه. أكملت إلى أعلى. وصلت إلى بداية ممر علوى، سرت فيه، دار بى، وانتهى عند السلم. كان الممر نظيفا، مفروشا بالموكيت الأحمر، جيد الإضاءة، تفتح فيه حجرات متراصة، كطابق فى فندق.

تشوشت حين حاولت اصطياد فكرة واضحة تربط بين ماأرى ومتتالية الأحداث التى سبقت صعودى إلى هذا المكان الصامت. أبواب مغلقة، وعلامة استفهام ضخمة، وحيرة وتخطيط، واقتراب من مجال الفوضى. لماذا أعطانى هذه الحجرات المغلقة، بهذا السلم الخفى؟

أمسكت بمقبض أقرب حجرة إلى. فتحت الباب، وسمعت - في نفس الوقت - قهقهاتها تتصاعد عندي.. كأنها ترصد تحركاتي. ونسيت أمر القهقهة وأنا أحاول أن أعبر، مع عيني، هذا الترتيب السخيف: أكوام من المخلفات؟!

أسرعت إلى الحجرة التالية: أكوام من أنواع أخرى من المهملات!. كانت بقايا الأشياء تملأ كل الحجرات.. مصنفة، متراسة، معدة للعرض، لاتراكب ولاعناكب، واضاءات قوية تعطي لهذه التجمعات الوحشية من سقط المتاع والمعدومات وجودا راسخا.. كان حقيقة، إذن، ما تردد عن شغفه الشديد بارتياح سوق المخلفات في كل يوم جمعة!

تسللت الهزيمة إلى قلبي. خلفت - مطعوننا - الأبواب مفتحة، وأخذت قدمي تتحسسان درجات السلم، حتى انسحب الضوء عند آخر درجة.

توقفت في الممر المظلم راغبا في البكاء، فاختلج صدري وبكيت. ملأت الدموع عيني، وأنا أدخل حجرة النوم، وراوغتني ستائر ثقيلة وأنا أبحث عن باب الخروج. سمعتها تسألني عن رأيي. ولم أكن أريد أن أتكلم أو أراها. سألت، أيضا: ألا تستريح قليلا؟. وأخذت تدعوني إليها. وكنت - ضائقا - قد بدأت أزيح طبقات من الستائر بحثا عن باب يأخذني بعيدا عنها. كانت الستائر تتثاقل، وكانت ألوانها الصريحة تتوالى في قبح، والباب لا يظهر لي، حتى أنني صرت في سجن من الستائر المخادعة، لا تتمزق ولا تنتهي، بل أخذت - أخيرا - تزحف من الجهات الأربع، تطاردني - في تودة - إلى مركز مستطيل، يشغله سرير معدني مرتفع يشبه الضريح.

■ ١ ■

كنت أعلم أنى أواجه مصيرى بكل ضراوته وعنقه ،
وأعلم أيضا اننى مدفوع إلى تلك المواجهة دفعا
لاستطيع منه فكاكا قدرى أنا وحدى.

كانت الساعة الثانية ظهرا والميدان مكتظ، والموعد
كما تلقيته دون أى تفسير «عند توهج الزحام وذروة
الصخب» ، وبينما أتجول على الطوار اقترب منى شخص يرتدى زيا
فرعونيا.. لأعلم من أين جاء ؟ كأنما انشقت عنه الأرض لتو اللحظة..
وبقدر ماأخذتنى غرابة ملبسه .. شدنى إليه بوجهه الهادئ.

● الموعد قد تأجل

— لماذا ؟

● لن يستطيع الحضور وعليك ملاقاته فى سكنه الخاص

— لكن هذا ليس بعدل

● لاتنس العدل هو مبتغانا الأساسى

وهو يولى ظهره ناحيتى .. مستقبلا هدير العربات والمارة :

— فلتكن متأهبا .

■ ٢ ■

«أخبرنى أبى أننى أدرج من أسرة فاطمية وأن أحد أجدادى ؟
واليا فى الباب العالى » تذكرت هذا وأنا أدق بقدمى ذلك البناء الع

□ الثار والليل □

المظهر.. المعبق برائحة مسك عتيق فلتكن تلك المقابلة حدا لعذاباتي
القديمة والجديدة ، وبمجرد أن دنوت من نهاية الردهة التي انفسحت
لحديقة ضخمة.

تداني إلى سمعى أنغام عزف ناي قديم فجذبني حنين غامض
وتوق للأيام الغارقة في الظلام .. ونشوة أفقت منها على رجل يرتدى
جبة وقفطانا وعمامة بيضاء يخبرني بأن الموعد قد تغير.

● أظن المزاح قد فاق الحد.

— لابد التانى إن اردت الخلاص.

● لن أتركه.

— لاتخف هو أيضا لن يتركك.

كيف أخاف وأنا أول من بحثت عنه — فى نسل العائلة — قبل أن يبدأ
هو فى البحث عنى .

■ ٣ ■

أوصافه فى مخيلتى كما تلقيتها عن أبى الذى تلقاها بدوره عن
جده وإن لم يره أحد منهم.

ملامح حادة .. جبهة عريضة .. أنف مدبب .. وشعر داكن السواد —
احترس فهو بارع فى التنكر ، وتلك إحدى حيله للايقاع بغريمه أعلم
ياأبتاه أن الأمر ليس بالشىء الهين ، ولكنى أخذت العهد أن أثار لكل
الأجداد وأن يسلم نسل العائلة من هذا الوغد الاثيم .. لكنه يراوئني
وتلك بلاشك أولى بؤادر النجاح.

«هل تظن إنك قادر على النيل منه رغم تاريخه الطويل».

لاتنس .. أطفالنا سيقدر لهم من الحياة الكريمة ما لم يتح
لأجدادهم.

ابتسمت لى فى شحوب وهى ترمق صور الأجداد المتوسدة

□ الشار والليل □

الجدران فريت على وجنتيها في حنو وضممتها إلى صدرى وأنا أرقب
من نافذة الغرفة .. انعقاد السحاب وتكاثفه.



أطأ بقدمى باب الفتوح.. يلطم وجهى عبق زمان سرمدى يترنح
على البوابة القديمة.. أعبرها ومن حولي تتقاذز أنسمة فجر جديد
أسعى للقائه ، وجدتني عند المكان المقصود كما تلقيت الرسالة ،
شهقت بعمق وزفرت طاردا كل مخاوفي.

وتجلت لى الحياة جديدة بأن نصتلى في عذاباتنا .. وانفجرت
أمامى عوالم لم أكن أدري روعتها من قبل.

رأيتة مقبلا من بعيد.. يتلحف الظلام.. ارتعدت مفاصلى . لم
أصدق أنى أول من يراه رأى العين من نسل العائلة المنحدر من
عصور سحيقة ، وتجلت لى في نفس اللحظة كل عذابات الماضى
فبدوت أكثر ثباتا.. بدت ملامحه تحت ظلال القمر المنعكس خلف
النباتات تتضح شيئا فشيئا .. رقت نافذة تفتح في بيت قديم.. وطفل
يتبول بجانب حائط مرسوم عليه بالطباشير خروف بلا رأس..
وتقدمت نحوه.



قديمًا كان جدى يقول لى : «العتمة غول مايشفش حد» كنت
أخشى العتمة ، وأخشى أن ألعب مع أقرانى أربط عصاة فوق عيني
وأظل أدور وأدور أفتش عنهم وهم يتقافزون من حولي هاربون كنت
ساعتها أمد يدي لألقف أحدا منهم فلا يجاوبنى غير الخواء وأحيانا
أرتطم بشخص. أو أتعثر في حجر ، وحين أفلح في الإمساك بأحدهم
وأحكمت عليه قبضتى كى لا يفر أخلع العصاة عن عيني فأجدنى
ممسكا بكلب ضخم أجرب :

■ ٦ ■

أستقبل وحدي كل الشياطين وتجا بهني الخيالات ، تنازعني
ذكرى أبي ، ويهزني لقاء الرجل .. وعبق حكمته وصوفية حديثه
فالرجل أوصافه مغايرة تماما لوصف أبي ، بل أخبرني بأن أبي هو
الذي ظل يتعقبه فلم يجعل أمامه خيار. ولا يمكن أن يكون مثل هذا
الرجل قاتل أو لص :

● يا ولدي إياك وإن يخدعك بتقواه وورعه المصطنع.
فقدرته على التلون هي ما جعلته يحيا كل هذا العمر.
— لا أريد أن أصيبك بسوء إلا إذا اخترت أنت.

يدق الليل بعصاته أرضية الغرفة . فأرى أبي يتيه عاريا في أرض
خاوية .. مترامية .. خالية من كل أثر وأرائي أرقبه من بعيد من قمة
تل وهو يلهث ، ولهائمه كأنما يضخ من قلبي ويسرى كالخدر في
عروقي ، وأرائي أتجرد من ثيابي أنا الآخر وأهبط التل وأظل ألهث
معه .. حتى يغمرنا الضباب.

■ ٧ ■

أنسيت وصية أبيك أيها الجاحد ؟
لم أعد أدري عند من تأري وعند من تأر أبي ؟؟
● تأرك عند الرجل .. أتخشاه ؟
— فتخبرني أنت يا عمي عن الحقيقة ، فقد عشت العمر أتوهم
ملاقاته وعندما رأيته أدركت أنني أضعت العمر هباء.
.. فلماذا خدعني أبي ؟
● طالما بدأت تسأل فلن تؤدي ما عليك.
— لماذا تريد تعذيني !

□ الثأر والليل □

● إنما أريد لك ولأباك الخلاص.. ولكن لاجدوى . فقد نال الرجل منك.

ماذا في الليل يهزنى إلى هذا الحد!! ارتطم بالسواد أينما توجهت ،
طفلى الصغير يسألنى وهو ينظر للسماء «فين ياأبأ ياأبأ بىروح الليل بعد
مايمشى؟»



لابد أن أؤمن بجرم الرجل كي أنال منه ، إذا توكدت فلن أبالى
بالعواقب وسأنفذ المطلوب مهما كان.
لكن أبى طالما راوغنى كلما استنطقته عن سبب العداء إنما كان
يكتفى بإيداع بذرة الغل فى صدرى طوال مراحل عمرى حتى كبرت
الشجرة وقبل أن تثمر وافانى الرجل بهيئته الوقورة فقطع الشجرة
من الجذر وتركنى اتخبط كأنما اقتلعت من أصولى وخرجت عن
القضبان التى عشت العمر أتدرب على السير عليها ، لأجدنى أجهل
طريق السير وطريقته !!

ياأبى إن كنت ضحية الرجل فأنا بريك ضحية من ؟
لو أستطيع انطاق الموتى ؟؟



● فوق أرض طباشيرية تداهم الجنود أبواب القلعة وتسقط آخر
حصون الدولة الأيوبية ، وتجتز النساء سبايا وتداهم العسس بيوت
الآمنين فيسلبوا الدفء من المخادع والأمن من النفوس ، وتهرع
الجمال إلى أعالي التلال وتلقى بنفسها منتحرة ، ويغيض الماء فى الآبار
ويرتفع الليل بلا راد فى الطرقات وييكى الرجال.. وتترهب النساء
وتلطم الدهشة وجوه الأطفال فيشيخون قبل الآوان.
وأرى أبى طفلا فوق كتف جدى يسأله عقب انصرافه من دار
الوالى :

□ اثنار والليل □

● أسمع الجمع يتكلمون عن يبيعون أنفسهم للوالى.. فما
الخيانة يا أبتا ؟

يرد جدى وهو يهرول مسرعا :

● الخيانة يا ولدى أن يظهر الناس عكس ما يبطنون.
وأبصر الرجل يهبط من فوق جواده يقف أمام جدى وأبى متأملا
ثم يشهر سيفه.

■ ٩٠ ■

اخترق أكوام الناس والعربات وزركشة الوجوه المتداعية من
حولى، أمثل فى المقهى المواجه للقلعة حيث يقضى صديق عمر أبى
أوقاته المتلاشية فى لعب الفرد :

● أهلا بالحبيب ابن الحبيب.

— فاض بى الكيل فلم أجد غيرك.

● كنت أعلم بأنك ستأتى.. فلم ينج أحد.

— لأحد يريد أنبأى بالحقيقة !

يتهافت إلى سمعى تقاسيم قاننون غير بعيدة ، فتجابه روحى
أنسام فضفاضة وأنا أهم بمغادرة المقهى تعجبت فرغم مرور الزمن
مازال الليل يجىء تماما كما يجىء النهار.

■ ٩١ ■

أمضى أنا وطفلى وسط الميدان المزدان بالأضواء والصخب وسط
الأضواء المنهمرة من نوافذ البنايات المتحلقة الميدان الواسع ..
والهواء الراكد يقاوم بإصرار الهواء المنعش القادم من سحابات
بيضاء.

وبينما الميدان نافورة من الضوء تسيل على وجوه الناس

□ الثار والليسل □

والأسفلت والطوار. يطلب منى طفلى الصغير أن أحمله فوق كتفى لأنه
تعب ، فأحمله وأخترق الميدان فى ثبات واصرار أطارده سحابة شفافة
تومىء لى منوشة عن عالم ذهبى الملامح ناعم الملمس .. رقيق
الحواشى.. ويتراءى لى الليل مناصفة مع النهار بلا أدنى تداخل.
يهبط الرجل من عربته الأنيقة الواسعة .. يقف أمامى يتأملنى أنا
وطفلى .. و ..

«الجسد الوحيد سلة فارغة تنتظر دوما من يملؤها».
ها أنا الآن تتجسد صورتي تماما.
في المساء أغلق فمى.. أترك أعضائي الساخنة تتبعثر
— أسمح لها أن تتقافز حولى حتى لا أشعر جيدا
بالوحدة .

في اليوم التالى أبدأ ألملم جسدى — يجب أن أعود في
الصباح كائنا غيريا أو متجانسا.. أخرج من حجرتي
الباردة، أكاد أطيّر في الهواء أتخاشى دوما أن أسير في الزحام أو أن
يحتك جسدى بجسد آخر، فأنا لا أعرف كيف تلتصق الأشياء
ببعضها .

هل.. أبدو غبية بعض الشيء ؟
قل لى كيف تشعر أنت حينما تراقب ثمرة ناضجة ذات حواف
حمراء قانية وهى تتهاوى على الأرض الجافة ؟
أشعر أنا بالحزن بالوحدة.. أندفع فى بكاء حار.. فأقذف بنفسى أنا
الأخرى كى أرقد إلى جوارها.. هكذا منتهى الحماسة .
أنا — حقيقة — لا أدري كيف تتجاوز الأشياء.
تتلامس .
تلتصق .

ثم تتداخل فى النهاية وينبعث منها ذاك الفحيح الحار.
كيف يلتصق جسدان ؟

□ جسد آخر وحيد □

لا أدري إن كان يمكن لجسدى أن يلتصق بجسد آخر .
لا أدري لماذا أراوغ جسدى هكذا دوما «مثل أنثى» فأجدنى أتقافز
عبر الطريق مثل قردة صغيرة تخيف الناس بصخبها فيبعدون
أجسادهم عنها فى الحافلة حيث أرى الناس تتشاك أعضاؤهم مثل
ضفائر أنثى مدربه أقف حائرة تماما أحملق وقد تقوس جسدى
للخلف، أحاول أن أميز نهاية كل جسد وآخر فلا أقدر.. فألعق شفتى
فى ببطء وأنا أبتعد بجسدى .

أصنع حوله دائرة هوائية باردة حتى يبقى جسدى وحيدا .
جسد وحيد .

لا يلتصق بجسد آخر .

جسد ساكن .

لا تنبعث منه أية رائحة .

حجارة مبعثرة مهملة .

بيت يتهاوى .

بقايا طيور عالقة بزجاج نافذتى الشرقية .

أصابع جنين يتشكل فى هدوء .

نغمات شاذة .

صوت مثل مواء يعلو بداخلى فجأة.

صوتى يخفت تدريجيا كل صباح - هكذا دوما صعود وهبوط

دون توقف - فى صباح اليوم التالى سأتلاشى .

أنفقت من تلقاء نفسى مثل سحابة قطنية .

ذات مرة رأيت نفسى أمد ذراعى ثم أقفز فوق سحابة عالية

عالية هى بالطبع

□ جسد آخر وحيد □

رأيت كيف تتفتت في هدوء.. تنفلت تماما ثم تعود تتلاصق من جديد وتشكل قطنا كثيرا كثيرا .

إنه الله يشكلها وحده كما يشاء كل صباح .

في تلك الليلة كان لها وجه ثعبانى .

يتسع ويضيق .

وينسحب .

يصبح له فم كبير مفتوح عن آخره .

مثل فم عزرائيل .

عزرائيل لا يخيفنى

«هل يخيفنى حقا؟» .

أنا لا أعرفه تماما .

من هو؟

من يكون هذا الـ .

الـلـص .

أتخيل أن يكون له أصابع غليظة مقوسة.. خمسة وثمانون أصبعا تتجاور.. أو ربما تتلاصق كى تحكم قبضتها على.. ترى هل سيمسكنى عزرائيل من رقبتى أم سيغريه شعرى الهائج فيلملم بأصابعه الكثيرة هذه شعرى المتناثر دوما .

ويجرجرنى وراءه إلى .

إلى أين .

هل أموت أبدا ؟

أموت وحدى أيضا؟ يتهاوى جسدى هكذا فى صمت لا يقطعه سوى صوت تداخل حبات التراب اللزجة بجسدى البارد .

□ جسد آخر وحيد □

عزرائيل.. أرجوك.. كن لطيفا معى .
عندما تأتى.. لا أعلم متى ستأتى .
ولكن قد تأتى فى أى وقت - أعلم ذلك - .
أطرق الباب أولاً إذن .
سأكون بمفردى أيضا .
لكن.. أرجو أن لا تأتى وأنا.. استحم .
عندما استحم أكون ثقيلة تماما مثل قطعة اسفنج جافة تناولت
فجأة قدحا من الماء.
لن تقدر إذن أن تحملنى.. لن يعجبك جسدى وهو ثقيل هكذا .
جسد وحيد ينسكب فوقه الماء البارد .
يسقط بتناقل فوقه .
يدغدغه .
فيغيب عن الوعي تماما .
يغرقنى الماء .
يعتلينى تماما .
فيتناثر جسدى مثل جزر خضراء صغيرة .
ريثما أهرب أنا بعيدا .
أنفليت تماما .
أعود وحدى إلى هناك .
هناك جيث الصحراوات الشاسعة والجبال البيضاء الصغيرة..
هل تذكرها جيدا ؟
أعتليها فى رشاقة حتى أصل إلى قمتها .
أقف فى ذهول.. أنا فقط ولا أحد هناك.. قريبة من السماء إلى هذا
الحد..

□ جسد آخر وحيد □

مثل نقطة ماء بيضاء تفتح فمها الصغير تندهش تماما.
أتحسس السماء .
تتسلل أصابعي الصغيرة، أنزع قشرتها اللبنية الطازجة فينسكب
في كفي سائل أزرق لزج شقي .
يا الله لم أر مثل هذه الزرقة من قبل .
أحب أن أفعل ذلك.. أن ينسكب هكذا في داخلي فأشعر أنتى ربما
لست وحيدة تماما.
أضحك لأننى.. أنا وحدى التى تفعل ذلك دوما .
أداعبه.. أدخرجه بين يدي.. أصنع منه كرة.. كرة مائية تماما
أدخرجها فوق جسدى العارى ثانية .
كيف تكون كثيرة وجسدى وحيد دوما هكذا ؟
أن يكون للمرء ساقان وذراعان .
عشرون أصبعًا.. ثديين.
وأنف واحد.
أنف واحد فقط يتبع رائحة كل هذا الكون .
أنا لا أشعر بأنفى عادة سوى في الشتاء .
في الشتاء يكون لى أنف باردة تماما.
أنفى صغير الحجم .
لا يتحمل برد الشتاء.. أخاف أن يموت أو يسقط .
لذا أنزعه دوما .
وأخبئه في قماشة حمراء صوفية كي لا يبرد .
فيجف .
وينكسر .

□ جسد آخر وحيد □

حينما يختلف الأمر تماما أخرج أنفى ثانية .
أعيده إلى وجهى المستدير .
أختار له موضعا جديدا أحركه يمينا ويسارا .
أمسك بالمرآة.. أجرب .
فوق حاجبى الأيمن ؟
أسفل الذقن؟.. هل يتحتم على أن أضعه فوق وجهى؟.. (شئ
يبعث على الملل) .
فى النهاية أضعه فوق كفى الأيمن حتى أترك رائحة الأمكنة
تقودنى إليها كفى الأيمن بمثابة جناح صغير يقودنى دائما إلى من
أحب .
من أحب ؟
الخرائط وخطوطها الزرقاء والحمراء وهى تتلوى وتتزوج فى حنو.
الأرصفت اللامعة .
الطرق الملتوية .
الدكاكين الصغيرة.. الحقائق.. الأحذية .
الأقبية .
رائحة السجاجيد العتيقة .
الركض — حينما يركض جسدى وحيدا ولا يتبعه أحد — الأسوار
العالية الدرج الأبيض العتيق .
باب العمود .
أرغفة الشاورما الساخنة التى تناولناها معا وكانت عيناك
تشتعلان كثيرا وهما تحاولان مناوشة جسدى .
الدهشة .

□ جسد آخر وحيد □

الانجذاب .

سروالى الأبيض وحذائى البنى .

روحى التى غادرتنى ولا زالت تعبث هناك .

الهروب من الذات ليلا .

أجوب الأمكنة - أجوبها دوما وشعرى المشعث يحاول أن ينفلت

منى ويقترب من رؤوس سوداء بعيدة.. فأللمه بسرعة وأبتعد خائفة .

صخبى الخاص .

ضحكاتى .

عيناي العسليتان وهما تتقافزان فى وجهى وتضحكان فى خبث..

سائر جسدى العنكبوتى .

نومى واشتهائى .

وأحلامى الصغيرة .

أحلام صغيرة للغاية .

ولكنها مفزعة تماما .

عادة ما أغلق عينى وأسير فى رداء بنى طويل .

أحلم .

فتتكسر أسناني.. تتكسر تماما حتى تستحيل إلى دقيق أبيض

ألوكه فى صمت وأنا أرنو بعيدا .

فى الليل .

تتساقط أسناني كثيرا .

تتهاوى فى صمت داخل جسدى الأجوف .

وتوجعنى .

فأستيقظ وقد فرغ فمى تماما من الداخل .

□ جسد آخر وحيد □

كيف سيبدو فمى عندما تتساقط جميع أسناني ؟

تماما مثل مرمى كرة القدم .

أو.. جراج مهجور مهمل .

مساحة خالية.

مظلمة .

ساكنة .

لا ينبعث منها سوى صوت ارتطام لسانى الكسول بسقف
الحجرة حجرة عرجاء تماما .

ترى كيف أكون عندما تقودنى قدماى إلى هناك ؟

هناك.. حجرة صغيرة مظلمة معلقة بين السماء والأرض .

امرأة وحيدة تماما.

امرأة نفضت عن فراشها البنى كل بقايا الرجال .

وبقى جسدها .

هكذا باردا .

هكذا وحيدا .

يعتلى الفراش .

ينثر ثيابه فى الهواء .

يتعري تماما .

ويرقص فوقه فى زهو .

أوه.. عزرائيل هل أتيت ثانية ؟!

أتود أن تأخذنى إلى هناك.. صحيح أن جسدى يتآكل بسرعة لكننى
لا أرغب أن أرحل الآن. سأحاول مرة أخرى أن يبدو جسدى فى شكل
آخر.. امرأة ناضجة تضع المساحيق ليلا ، تتعري جيدا وترقص..

□ جسد أخرو جيد □

وتشير من بعد بطرف أصبعها .
لماذا تبدو منزعجا.. هل جربت الرقص أبدا ؟
الآن أحب أن أراقص جسدى العارى.. أرقبني إذن وأنا أرقص
أتسلل.. أرقص قرب النافذة حتى أنفذ من خلالها فلا يقدر أن يتبعنى
هذا الـ .

هذا الـ . سيشعل سيجارته مرة أخرى .
أخاف أن أراها تحترق هكذا .
أن يكون لها جسد أبيض رشيق وفي نهايته قبعة بنية أنيقة .
ثم يحترق في النهاية .
أعرف هذه اللعبة .
تشعلها في البداية.. تقبلها بشفتيك الباردتين ثم تتركها هكذا ترقد
بمفردها وتموت ريثما تنشغل أنت بإشعال امرأة أخرى .
امرأة وحيدة تماما.
خائفة تماما,
أنا.

بين لحمى النىء .
وجسدى الحار .
أقف حائرة.
مثل مروحة معدنية .
تروح وتجىء.. ولا تمل .
تجىء ونروح .
ثم .. تنطفئ .
متى تنطفئ الحرائق .

□ جسد آخر وحيد □

كيف تشتعل ؟.

أحدهم أشعل حريقا في مكان ما بجسدى ومضى يعبث بمكعباته الورقية .

يصنع طائرة .

يتركها تحلق بعيدا بعيدا .

ثم تسقط فجأة على الأرض .

وتتناثر قطعاً صغيرة .

جناحا عصفور .

عصفور ضئيل لا يجيد الرؤية تماما فيتهاوى وحيدا.. ويتناثر هكذا سريعا «الوحدة تملئ نموذجا خاصا للجنون» .

أخرج من حجرتى الساذجة أغلق الباب جيدا ثم أجلس عند قدميه أعبث بأنفى الصغير.. أفكر .

«هل يلتصق جسدانا أبدا ؟» .

للجسد النىء مذاق، مثل امرأة عجوز يحتفظ وجهها الورقى المجعد بلونه الوردى .

لجسدى .

مذاق .

آخر .

لن تعرفه الآن تماما .

لم تعرفنى حتى الآن تماما.

يمكنك أن تعد من واحد إلى واحد آخر حتى تصل أخيرا إلى .

هل تعرف كيف تسلك الطريق لامرأة وحيدة لا تمتلك مهارة التزاحم مع الآخرين.. لها جسد فزع .

□ جسد آخر وحيد □

أرنب برى صغير ترتعد قدماه بشدة .
هل تعرف كيف تدخل امرأة ساكنة تماما .
بيت فارغ تماما .
يعلو سطحه ثلوج زرقاء ورمادية .
هل تخشى اللون الرمادى ؟
أنا لا أعرف ان كان يبعث على الملل، لكننى أعرف أنه لون وحيد
يسير بمفرده دائما فى لحظة ما تكون السماء هى الأخرى رمادية
تماما .

بالمصادفة أكون أنا هناك .
هناك حيث الإله يقف وحيدا يراقب كل شىء .
« هو لا يشعر بالطبع بالوحدة مثلى .
هل يشعر حقا بالوحدة ؟ » .

ألهذا يطىء الأرض بقدميه ليلا، يبسط يده الكبيرة ليداعب
رؤوسنا.. كم هى طيبة حقا يد الله هذه.. أشعر بها دوما عندما
يغتلىنى السأم تماما فيرتجف جسدى بشدة، تغتلىنى يد الإله فيهدأ
جسدى قليلا وينكمش، أجد نفسى أعتلى أرجوحة، أجلس أنا فى جانب
وأضع الكون بأكمله فى الجانب الآخر .

الكون ساذج ثقيل بطبيعة الحال، لذا أجد نفسى أحلق فى الهواء
دوما.. أتسلل للسماء الأولى من هذا البعد اللانهائى أنظر فزعة
للأرض المزدحمة برؤوس سوداء صغيرة .

أخبىء جسدى بين ذراعى .
أنظر إلى جسدى ثانية جسدى الوحيد المرتجف .
أركض فى النهاية .

□ جسد آخر وحيد

وتهتز يداى الباردتان فى عنف .
أهبط إلى الأرض ثانية .
أركض.. أصنع حوالى ذات الدوائر البيضاء الباردة.. فى النهاية
وعندما يبدو الأمر ساذجا إلى هذا الحد قد أشعر بالملل فأتوقف
ألهث.. أتلفت حولى.. لا أحد يتبعنى .
أبعثر شعرى الهائج.. لا أحد ثانية .
سوى أرصفة الشتاء .
سوى.. أنا . جسد بارد فارغ تماما .

مع تسلل الضوء وانتشاره ليزيل ظلام الليل الحالكة
في كل دورة يومية وقبل أن يضرب شعاع الشمس
بأذرعه الطويلة في كل مكان ليؤكد بداية صبح جديد ،
أسمع صرير العجلات الخشبية المطعمة بالحديد آتية
من قريب . تظهر الحمير الثلاثة العجفاء أمام الباب
الواسع للبيت الكبير ، يتوقفون في مكانهم المعتاد من كل
يوم دون توجيه ممن يقودهم . الحمار الأساسى فيهم
مربوط بين عارضتين من الخشب يسميان (العريش) ، الحمار
الأعرج الثانى أكبر الثلاثة سنا ومربوط خارج العريش من جهة
اليمين، الأعرج الثالث صغير السن ومكانه شمال الحمار الأساسى
خارج العريش أيضا. يتصل العريش الخشبى بالعربة القذرة التى
لا شكل لها ولا لون، حقيقى أنها مصنوعة من الخشب على هيئة
صندوق عميق مربع الحجم لكن القذارة تسببت بمرور الأيام في
طمس معالم هيكلها الخشبى. كما أن الأثقال التى تحملها كل يوم
بدلت من شكل استواء صندوقها وجعلته دائم الانبعاج.

يقفز «البشوتى» من مكانه خلف الحمير ملتقطا الزنبيل الكبير
ليجعله وراء ظهره، يترك الصبى الصغير ليبقى في انتظاره ممسكا
بمقود الحمير العجفاء، يدخل البشوتى

من الباب الواسع تجاه غرفتى الضيقة القابعة تحت درجات
السلم، يسمعنى تحية الصباح وهو في طريقه وأرد التحية بأحسن
منها من مكنى، يبدأ صعود الدرجات حتى آخر طابق في البيت الكبير

□ إضراب الزبالين □

المرتفع المتعدد الأدوار، يفرغ صفائح القمامة من أمام الشقق في زنبيله الكبير بهمة ونشاط، ينزل إلى الطابق التالى ويفعل مثلما فعل فى سابقه مع صفائح القمامة، الشقة التى لا يجد أمامها قمامتها يتركها ولا ينبه أصحابها ليخرجوها له. الوقت عادة يكون مبكرا ويخشى إيقاظ السكان أو إقلاق راحتهم، على السكان أن يتركوا صفائحهم المملوءة أمام شققهم من الليلة السابقة. الأتربة ومخلفات الهدم أو تكسير الحوائط لا تعتبر من أنواع القمامة، يتركها البشوتى مكانها حتى وإن كانت موضوعة داخل الصفائح أمام الشقق فلا يفرغها. مبادئ سار عليها فى عمله ولا يحيد عنها إلا باتفاقات خاصة ومسبقة.

بعد صعود البشوتى أترك مكان نومى الضيق حاملا صفيحة مهملاتى، أتحرك ناحية باب البيت مقتربا من العربية ذات الحمير الثلاثة، أفرغ مهملاتى بنفسى أو أعطيها لصبى البشوتى ليلقيها فى صندوق العربية، أقف فى مدخل البيت أنتسم هواء الصباح وأستنشق فى صدرى. أتأمل الرائحين والغادين الذين يبدأون يومهم فى الساعات المبكرة. لفت نظرى - عديد من المرات - تخصيص ثلاثة حمير لجر العربية الصغيرة. لاحظت ذلك فى معظم عربات جمع القمامة التابعة للقطاع الخاص أمثال البشوتى الزبال.

بعض العربات معلق بها حماران على الأقل ويندر وجود عربية بحمار واحد. تصميم صناعتها ليجرها حمار بمفرده وليس حمارين أو ثلاثة، هذا واضح من المسافة التى يقف فيها الحمار الأساسى داخل (العريش)، فماذا يفعل الحماران الآخران المربوطان خارج عريش العربية؟ هل المقصود منهما تسلية الحمار الأساسى والتسرية عنه فى رحلته؟ أم أن وفرة الحمير ورخص ثمنها هو السبب فى استعمال أكثر من واحد؟ وربما كانت الحالة الصحية هى المعول فى استخدامهم

□ إضراب الزبالين □

بصورة جماعية؟ فصحة الحمير الثلاثة العجفاء مجتمعة تكاد تعادل صحة حمار واحد قوى البنيان في كامل عافيته، كما أن الحالة النفسية للحمير لها تأثير لا يمكن إنكاره على صحتهم وحالتهم العضوية. فشعور الحمار بالعمل في عربية زباله يختلف عن شعوره إذا عمل في حقل أو في سيرك. تحليل آخر هادئ إليه تفكيرى بخصوص الإسراف في استعمال الحمير. إذا كانت هناك صلة زواج أو قرابة بين الحمير التى تجر العربيه أو حتى مجرد خطوبة، هنا يكون القصد واضحا بالحفاظ على وحدة الأسرة الحميرية وعدم تشتيت أفرادها، لكن هل كل الحمير التى تجر عربات الزباله بينها صلة نسب أسرى أو حب أو خطوبة؟.

هذا ما جعلنى أسأل البشوتى عن سر جر عربته بثلاثة حمير. أجابنى وأقنعنى بأن فائدتهم مؤجلة لكنها آتية لا ريب فيها فى كل يوم. فعند المطالع والاقتراب من المزيله الرئيسيه لتفريغ محتويات العربيه تظهر الحاجه الملحه للحمير. العربيه تكون فى نهايه رحلتها مكدسه بالزباله وحملها ثقيل يحتاج إلى تعاون. الحمير الثلاثه يشد بعضهم أزر بعض لسحب العربيه والوصل بها إلى مقلب التفريغ. كذلك عند العوده والعربيه فارغه من حمولتها تتدحرج بقوة من المنحدر السابق صعوده. حمار واحد بمفرده لا يستطيع السيطرة على اندفاعها أثناء النزول. قد تنقلب العربيه أو تقع على الحمار فيصاب بما لا يحمد عقباه. تعاون الحمير الثلاثه يضمن سلامتهم فى صعود المطالع ونزول المنحدرات. تذكرت ساعتها العربات الحكوميه التى تقوم بذات العمل وتجمع القمامه من الشوارع. فرغم أن عربيه الزباله الحكوميه يبلغ حجمها عدة أضعاف عربيه البشوتى. ورغم أنها مصنوعه من الحديد وذات عجلات كبيره القطر. ومع ذلك يجرها بغل واحد يبدو عليه دائما الحزن والاكتئاب. ومعه الحق فى حزنه

واكتئابيه فهو يشعر بالظلم الفادح الذى يعيشه كموظف حكومى.
وقفتى فى مكانى لا تطول دقائق بالهناء واستنشاق الهواء العليل،
لا بد وأن تزكم أنفى رائحة كريهة تتسرب مع الأثير إلى خياشيمى،
أففق من سرحتى منتبها لوجود عربة الزبالاة الرابضة أمامى، أشفق
على هؤلاء الذين يعملون عليها وتعد مصدر رزقهم الوحيد والدائم،
انهم يتشممون على الدوام رائحة العفن من مخلفات الأطعمة
ومختلف الأشياء. لاشك أنهم اعتادوا على عملهم ولا يشعرون بما
يأنف منه ويتأذى الآخرون. أصبحت الروائح الكريهة المبغضة -
مهما كانت درجتها - لا تسد أنوفهم. اكتسبت خياشيمهم مناعة
طبيعية فلا تتأثر بتلك الروائح. بل على العكس تماما ربما تضايقهم
الروائح العطرة وتسبب لهم الأذى. فقد تلتهب جيوبهم الأنفية أو
تصاب بحساسية إذا دخلها هواء معبق عطر. اعتيادهم على قضاء
معظم أوقاتهم فى المزبلة العمومية أفقدهم حاسة الشم. جعلها طول
الوقت تتخذ طبيعة خاصة تناقض الوضع الطبيعى.

لقد طوروا أنفسهم ليعيشوا بأربع حواس دون الخلق أجمعين.
بل يخيل لى أن زيارتهم للحدائق وشم الزهور والورود قد يصيبهم
بالإعياء والإغماء، وأحمد الله فى سرى أنه - سبحانه - لم يكتب لى
الاشتغال بمثل عملهم. فعملى كحارس للبيت يتسم بالنظافة التامة
وإن كان الكثيرون يحتقرونه. فما بالهم بنظرتهم للعمل الذى يقوم به
أمثال البشوتى الزبال؟

حدث ذلك فى بدايات شهر جديد عندما حضر البشوتى لتحصيل
أجره الشهرى. اعتاد على أن يأتى وحده فى ضحى يوم من أوائل
الشهر بدون العربة وبغير الزنبيل. يطرق أبواب الشقق التى أفرغ
من أمامها صفائح الزبالاة طوال الشهر الفائت. بعد طرقه للباب
يتراجع بعيدا عدة أمتار حتى لا يجرح الموجود داخلها بنظراته. بعد

□ إضراب الزبالين □

فتح الباب يعلن عن نفسه بصفته (الزبال) ليعطيه أصحاب الشقة الأجر الشهري المعلوم. أذكر جيدا ذلك اليوم في بدايات أحد الشهور القريبة الماضية. جاء البشوتى وقد قرر رفع أجره الشهري الذى يحصل عليه من السكان. الزيادة التى طلبها لا تتعدى قروشا قليلة بالنسبة لما يقدمه من خدمات. كان يحصل على جنيه واحد من كل شقة عن عمله طوال أيام الشهر. فى ذلك اليوم طلب خمسة وعشرين قرشا زيادة على الجنيه السابق الاتفاق عليه. برر طلبه للسكان بارتفاع الأسعار فى جميع السلع المتداولة بالأسواق. هو أيضا يشتري السلع التى يحتاجها لمعيشته بالأسعار المرتفعة مثل باقى الناس. أعطاه بعض السكان الزيادة المطلوبة فى صمت وأدب دون محاورة أو مناقشة. سخر البعض الآخر من التبرير الذى أبداه للحصول على الزيادة وجادلوه طويلا. فى رأيهم أن احتياجاته محدودة للغاية ويمكن تدبيرها بأقل التكاليف.

كادت إحدى السيدات أن تضرب له المثل باستغنائها عن صابون الغسيل وربما صابون الاستحمام أيضا. أشارت على ملابسه وهى تحدته قاصدة أنه فى غنى عن استعمال الصابون. ملابس البشوتى قديمة رثة مجهولة اللون يستحيل معها إجراء محاولات التنظيف. لم يعرف الصابون طريقه إلى ملابسه - بقصد الغسيل - منذ شهور غير معروفة العدد. كذلك ما فائدة الاستحمام للبشوتى إذا كان جسده سيتسخ بمجرد أن يبدأ العمل فى اليوم التالى. الأقدام التى يسير عليها لم يكن لها شرف ارتداء حذاء جديد الصناعة فى يوم من الأيام. يتم استبدال الحذاء القديم بآخر قديم لكنه متماسك يمكن السير فيه لعدة أسابيع. يحدث ذلك عند العثور على حذاء مناسب داخل إحدى صفايح القمامة التى يفرغها. يقوم البشوتى بارتدائه فى الحال ويلقى مكانه الثانى الذى يستتر به قدميه. يظل يستخدم الحذاء الجديد

القديم إلى أن يتفسخ أو يجد ما يحل مكانه في قدميه. لا يفكر يوما في تنظيفه أو العناية به فطبيعة عمله تحول دون ذلك. تتراكم طبقات الأوساخ على جلد الحذاء فتفقد اللون والمعالم يوما بعد يوم. ويصبح هناك تناسق بين الحذاء وبين باقى ما يرتديه البشوتى على جسده وعلى رأسه.

أمام شقة أخرى تجادل مع البشوتى موظف حكومى سابق يعيش أيامه الحالية بالمعاش. وجدها فرصة للتنفيس عن نفسه وقدم أسبابا تقابل تبرير البشوتى لطلب الزيادة بل أقوى في الدليل. حجة الموظف السابق أن مرتب معاشه الشهرى ثابت منذ سنوات ولا تزيده الحكومة مليما واحدا. رغم أن أولاده لا يتوقفون عن النمو ويتنقلون في سنوات دراساتهم ومطالبهم في ازدياد مستمر. الأسعار المرتفعة لا ترحمه وجاء إليه البشوتى بمطلبه ليزيد الطين بلة. رثى البشوتى لحال الموظف وكان يرحل عنه ويترك له أجره الشهرى كمساعدة منه. ناداه الرجل واختفى داخل شقته ليحضر له النقود التى طلبها منه. جاءت زوجة الموظف تثرثر بلا حساب محاولة إلغاء قرار الزيادة. وضح في حديثها الحسد المباشر للعاملين في جمع القمامة من البيوت. بينت للبشوتى أنها تعرف أسرار مهنتهم التى لا يعرفها الكثيرون كأنها عليمه بخبايا الأمور. قالت أنهم يفرزون القمامة المتجمعة ويصنفونها أنواعا متجانسة. الزجاجات الفارغة وعلب الصفيح وبقايا ومخلفات البلاستيك وكل شىء يعاد بيعه وله ثمن. حتى الأوراق مهما كان نوعها أو قذارتها تباع للمصانع ليعاد طبخها وتصنع منها علب الكرتون. جاء زوجها الموظف وأمرها بالسكوت ونقد البشوتى الأجر الشهرى مع الزيادة التى طلبها.

وعندما وصل البشوتى للطابق الأول من البيت نزولا كان الكيل قد فاض به وطفح. مجادلة كل ساكن على حدة أتلقت أعصابه وهدت

من كيانه. طرق باب إحدى شقق الطابق الأول ووقف ينتظر. ساكنة الشقة لها طابع يختلف عن بقية سكان طابقها والطوابق العليا بالبيت. جمالها اللافت للأنظار جعلها تتعالى عند معاملتها للآخرين من بنى البشر. اسمها (دلال) وفي مشيتها تحاول تطبيق اسمها على الخطوات التي تخطوها. متكبرة في تصرفاتها بين الجيران والجميع يكتنون لها كراهية خفية. حتى زوجها (عاصم) لم يسلم من رذالتها وكثيرا ما دب الخلاف والشقاق بينهما. في نقاشهما يرتفع صوتهما ليصل إلى أسماع كل السكان وإلى السائرين بالشارع، يفضل السكان الاقتصار وعدم التدخل لفض الخلافات التي تنشأ بين الزوجين. يغيب الزوج عاصم عن المنزل باليومية أو الثلاثة في أوقات تكاد تكون متقاربة. ربما غيابه بسبب هجر زوجته وتأديبها أو لقيامه بعمله الذي أجهله، يترك زوجته وحيدة في الشقة فلا أبناء لهما منذ تاريخ زواجهما. بعض أقاربهما من الجنسين يترددون على الشقة في حضور الزوج أو أثناء غيابه. لا أعرف من المترددين من يمت لعاصم وزوجته بصلة القرابة أو مجرد الأصدقاء.

تلبس (دلال) دائما ما يكشف عن جمال جسدها في حضور القريب والصديق الغريب. متحررة في سلوكها تظل سهراتها مع زوارها إلى ساعات متأخرة من الليل.

فتحت دلال باب شقتها لتجد البشوتى الزبال واقفا ينتظر حصوله على أجره الشهري. عندما رآته تراجعت للداخل وأحضرت ورقة واحدة من فئة الجنيه قدمتها إليه، قبل أن يمد يده نهبها إلى الزيادة التي حصل عليها من باقى السكان وطالبها بمثلها. رفضت في صلافة مبدأ الزيادة وأعلنت عدم الرضوخ لما يطلب. حاول إقناعها كما اقتنع باقى السكان فلم تستجب وأصرت على موقفها. ضاق صدره من الجدل المرتقب فأشاح لها بيده زاهدا في الزيادة وفي الأجر

الشهرى. اغتاضت منه فبدأت تقرعه بكلمات نابية وألفاظ جارحة متلاحقة. برطم البشوتى بكلام لم تفهمه دلال وهو يولى ظهره لها متجها إلى الشقة المجاورة. دق الباب وسرعان ما فتح له فطالب أصحاب الشقة بأجرته الجديدة. شاهدوا جارتهم وسمعوها وهى ترسل بقايا سبابها للزبال. أحسوا أن السبب هو زيادة الأجر فأعطوا البشوتى ما طلب. اختفت دلال داخل شقتها وصفقت الباب خلفها بصوت مزعج ومثير. تحرك البشوتى ناحية الشقة التالية ليدق بابها ويطلب أجرته.

في الصباح الباكر لليوم التالى كان البشوتى فى دورته المعتادة يفرغ صفائح القمامة من أمام الشقق. عاصم زوج دلال يترصده خلف باب شقته متصنعا ينتظر حضور الزبال للطابق الأول. وصل البشوتى وأنزل الزنبيل الكبير من خلف ظهره ليواصل عمله. خرج عاصم من شقته مزمجرا متوعدا بالويل والثبور وفضائح الأمور. فوجيء الزبال بأيدي عاصم تنهال عليه فى غير رحمة توسعه ضربا متواصلا. أخذته المفاجأة فلم يستطع الدفاع عن نفسه والآخر يزيد الضرب عليه ولا يرتدع. وقفت زوجته دلال تتثنى على باب شقتها شامتة بنتيجة مكيدتها. خرج سكان الطابق ونزل بعض ساكنى الأدوار العليا إلى المكان. تجمهر حشد كبير ومازال عاصم يرسل ضرباته للرجل المسكين. كلما أقدم أحدهم ليخلص البشوتى من يده تراجع عن أقدامه وتدخله. ادعاءات عاصم التى يرسلها بصوت مسموع للواقفين تجعله يعدل عن تخليص البشوتى منه. تناثرت من فم عاصم كلمات عن (شرفه) و(كرامة زوجته) التى يعرف كيف ينتقم لها. دلال تطلق افتراءاتها أمام السكان لتزيد حماس زوجها فى ضرب الرجل. تحدثت عن حثالة المجتمع - أمثال البشوتى - الذين يتطاولون على (الشرفاء) من أمثالها. نزف الدم من فم البشوتى

وتورمت عيناه من لكمات الزوج الثائر. لم يستفد المضرور من تجمع السكان إلا زيادة إهدار كرامته أمام الجميع. أخيرا تفرق الجمع دون معرفة تفاصيل الموضوع بين الطرفين. بقى المسكين منزويا بجوار الحائط تنزل دموعه على الدماء التى تنزف من شفثيه. التقط زنبيله مغادرا المكان ليركب عربته ذات الحمير التى لا تقل عنه ذلة ولا مسكنة. حاول الصبى الحائر أن يستفسر من البشوتى عما حدث فلم يتلق منه إلا الصمت وزيادة الدموع المنهمرة.

اتجه البشوتى بعربته إلى قسم البوليس دون تكملة عمله المعتاد فى بقية البيوت. دخل على المسئول والوقت مازال فى ساعات الصباح الأولى من ذلك اليوم. الورم الأزرق حول عينيه وبقايا الدماء فى فمه والكدمات واضحة على وجهه. حكى ما جرى وما كان والدموع تنهال على وجنتيه من شدة التأثر والانفعال. رفع غطاء رأسه القذر ليشير إلى الفتوات التى صنعتها لكمات عاصم فى جمجمته. من غير غطاء الرأس تبدلت صورة البشوتى لتصبح صورة أخرى قبيحة مخيفة. ازداد تهوش شعره الأشعث المغبر بالأوساخ والأتربة. بدا البشوتى للمستئول كأنه انسان يعيش فى الأدغال والغابات أت من العصور الأولى للتاريخ. أشار له متقرزا بتغطية رأسه خوفا من زحف مالا يعلمه إلى خارج نطاق الشعر. غطى رأسه كما أمر وأمسك بتلابيب السترة الطويلة الفضفاضة التى يرتديها. أراد أن يخلعها ليكشف المستور من جسده تحت ملاپسه البالية. كلماته المصاحبة لأفعاله تؤكد اصابة ضلوعه بالكدمات المؤلمة. السترة الممزقة يتناثر منها فى المكان أشياء دقيقة عند تحريكها بأيدى البشوتى. اشمأز المسئول من حركاته وأمره بالكلام دون الوصف والفعل. نسى أمر المسئول ورفع طرف رداءه الأزرق ليريه ساقيه المصابتين. ضاع أثر الإصابات بين القشف المنتشر على طول الأرجل حتى الفخذين. أخذ

□ إضراب الزبالين □

يفتش عن إصابة ظاهرة بين أرجله العظمية الفقيرة في اللحم. رفع إحدى قدميه ليربها للمستئول فنهره الآخر كي يكف عن الوصف العملي. لم يتأكد المستئول - عندما رأى قدم البشوتى - إذا كان بالقدم حذاء أو هى حافية لسيطرة اللون الواحد على الساق أجمعه.

أرسل المستئول من يستدعى الساكن عاصم ليستجوبه فيما ينسبه إليه المجنى عليه. حضر عاصم بصحبة زوجته والبشوتى جالس القرفصاء بجوار الحائط فى غرفة المستئول. تحدث فى إسهاب وهمست زوجته فى أذن المستئول الذى هز رأسه فى شبه اقتناع. أشار للمتضرر ليقتررب فنهض يللم أوجاعه العضوية والنفسية. وقف أمام ممثل القانون ألا الحصول على حقه المهضوم. بوغت بأن المستئول يطلب منه التنازل عن حقه فى مسألة الضرب. حاول إظهار ثورته بالاستشهاد بسكان البيت الذين تجمعوا وقت ضربه. تنحى به/جانبا وبين له ادعاءات عاصم وزوجته دلال وعواقبها القانونية. عاد لثورته معلنا أنها محض افتراءات لا أساس لها من الصحة. أشفق على ثورته وحاول إقناعه مرة أخرى بالتنازل عن بلاغه. نسى البشوتى حرمة المكان. وعلا صوته ليستردوا له كرامته كإنسان. تبدل أسلوب المستئول فى مواجهة المسكين وتولى المهام الطبيعية لوظيفته. هدر صوته فى المكان ليفيق محدثه من ثورته ويذكره بحجمه الحقيقى. بين له إصاباته وكدماته الملموسة لا طائل من ورائها. ادعاءات خصومه - وإن كانت غير ملموسة - إلا أنها أقوى أمام القانون وأردع فى الجزاء.

ومن بين دموعه استمسك البشوتى بشهادة سكان البيت الكبير. نفذ صبر المستئول شارحا له أن شهادة السكان لن تجدى فيما تدعيه ضده السيدة دلال. حضر السكان واقعة الضرب من الزوج عاصم لكنهم لم يشاهدوا ما تدعيه الزوجة دلال. بذلك يكون الزوج عاصم فى حالة دفاع عن شرفه والانتقام لكرامة زوجته. لم يفهم البشوتى

□ إضراب الزباليين □

النصائح التي توجه إليه لسحب بلاغه والجنوح إلى السلم. أصر على موقفه مستنجدا بسكان البيت والاستماع إلى شهادتهم. الآلام المستمرة في جسده جعلته يستमित في استرداد حقه. استجاب له المسئول و أرسل يستدعى من حددهم البشوتى للإدلاء بشهادتهم. جاء بعضهم وآخرون كانوا قد ذهبوا لأعمالهم أو أنكروا أنفسهم منعا للخرج. الذين حضروا تخيروا ألفاظهم عند إجاباتهم على أسئلة المسئول. حقا لقد شهدوا برؤيتهم لواقعة الضرب لكنهم بهتوا من سماعهم لباقي القصة. اعتذروا جميعا عن معرفة حقيقة ما تدعيه الزوجة دلال على البشوتى الزبال. أخذوا البشوتى جانبا ونصحوه أيضا - كما نصحه المسئول - بالتخلي عن حقه. أفهموه الضرر الذى سيقع عليه والناجم عن مواصلة السير فى اجراءات النزاع بين الطرفين. اعتقد البشوتى أن السكان خذلوه وتكاتفوا مع جارهم ضده. أخيرا اقتنع وخرج من قسم البوليس يجر جر أذيال الخيبة والحسرة والألم.

انقطع البشوتى عن دخول البيت الكبير من تاريخ ذلك الحادث. لم تعد عربته ذات الأسرة الحميرية تنتظر فى مكانها التى اعتادت على الوقوف فيه. فى اليوم التالى خرجت من غرفتى ولحقت به عندما لم يتوقف بعربته. علمت منه ما حدث فى قسم البوليس وتعاطفت معه راثيا لحاله. أبلغنى قراره بعدم تجميع زبالة الشقق تأديبا لسكان البيت كله. فقد خذلوه مرتين ووقفوا منه موقفا سلبيا لم يكن يتوقعه منهم. لم ينقذوه من أيدي جارهم أثناء الضرب وراوغوا عند الإدلاء بشهادتهم فى قسم البوليس. تعاطفى معه جعله يسمح لى بتفريغ مهملاتى فى عربته دون بقية السكان. عرفت أهمية ومقدار ما خصنى به خلال الأيام القليلة التالية للحادث. بقيت الزبالة داخل الصفائح أمام شقق البيت دون تفريغ. القطط الضالة التى تجوس البيت ليلا

قلبت الصفائح بحثاً عن رزقها. يصعب على القطط رد الزبالة إلى داخل الصفائح وتنظيف ما حولها. كان البشوتى يقوم بهذا العمل تطوعاً منه دون أن يحس به أحد. فى اليوم التالى تكدست أكوام أخرى من الزبالة فى أكياس بلاستيكية. جاءت القطط بعد نيام الناس وقطعت الأكياس لتحصل على قوتها. تناثرت بقايا زبالة اليوم الثانى على رصيد زبالة اليوم السابق. توالى أيام فتخمرت المخلفات وتسربت الروائح الكريهة إلى الأنوف. بدأ السكان يقلقون من وضع غريب لم يعتادوه من قبل ولم يتصوروا حدوثه.

قصصنى بعض السكان لتصرف قمامتهم فتمسكت بحدود اختصاصاتى كبواب للبيت. حاول أحدهم رشوتى خلسة لأقوم له وحده بهذا العمل فى ظلمة الليل. رفضت المبدأ معتذراً وفى داخل إحساس بالتضامن مع البشوتى المظلوم. واحد من السكان جمع قمامته وأخذها معه داخل مؤخرة سيارته ليتخلص منها فى مكان بعيد. ساكن آخر لم يقتنع بهذا التصرف، فإلى متى يظل هو المسئول عن مخلفات شقته. الأيام تتوالى والزبالة تزداد تكوما وتكدسا أمام أبواب الشقق دون إيجاد مخرج لتصرفها. تكاثر الذباب بصورة مخيفة ووجد مرتعا خصبا لوضع البيض والتناسل. تضخمت المشكلة وضجت السيدات وتناقشت الأسر حول ضرورة إيجاد حل فعال وسريع. رفض أبناء الأسر تولى المهمة - الحقيرة فى رأيهم - التى كان يؤديها البشوتى لهم. اقترح بعض السكان الاتفاق مع عربية مرفق البلدية التابعة للحكومة للتخلص من قمامة شقق البيت. ذهب وفد من الساكنين لمقابلة عمال النظافة التابعين للمنطقة والمسئولين عن نظافتها. فى البداية تعطل العمال بأنهم موظفون حكوميون تنحصر مسئوليتهم فى تنظيم الشوارع لا غير. بالترجى والاستعطاف وافقوا واشترطوا أجرا يوميا مرتفعا من كل شقة بالبيت. حسب الوفد

□ إضراب الزباليين □

المفاوض الحسبة الشهرية لما يطلبه العمال عن كل يوم لتفريغ القمامة. وجد السكان أن كل شقة ستدفع شهريا عشرة أضعاف ما كان يحصل عليه البشوتى.

تمرد أحد أعضاء الوفد على الشروط المجحفة والتي يضعها عمال النظافة. استنكر آخر اعتداء عاصم بضرب البشوتى الطيب زبال البيت. لعن ثالث افتراءات السيدة دلال على الرجل المظلوم واستبعد جراته على فعل ما تدعيه عليه. رابع منهم واجههم بتخليهم عن مساندة الرجل الضعيف في محنته يوم استنجد بهم ووقفوا مكتوفى الأيدي أثناء ضربه وتهربوا من قول كلمة حق في قسم البوليس. ثم ماذا ينتظرون بعد ذلك الا التعب والمعاناة على ما فرطوا في أمر زبالهم. دافع الأول عن رأيه بأن شهادتهم ضد عاصم غير ذات موضوع أمام ما تدعيه زوجته على البشوتى. سمع العمال الواقفون نقاش أعضاء الوفد ساكنى البيت الكبير. تساءلوا واستفسروا حتى وقفوا على حقيقة ما وقع للبشوتى يوم الحادث المذكور. بطريقة تلقائية اتفق عمال النظافة على رأى جماعى أعلنوه لوفد السكان. رفضوا شبه الاتفاق المعقود شفاهة وتراجعوا في وعدهم مهما كان الأجر المدفوع. خاف كل منهم أن يقع له ما سبق حدوثه مع الرجل المظلوم. فسرهما وفد السكان تفسيرا غير التفسير وأساءوا الفهم والتحليل. ظنوا أن الزبالين تضامنوا غيايبا مع ابن مهنتهم رغم عدم معرفتهم به. انقلب الوفد على بعضه البعض باللوم والتأنيب بسبب فتح سيرة ما جرى وما كان. كروا عائدين ومشكلة الزبالة قائمة دون الوصول إلى حل.

مرور الأيام يرفع من الهرم الزبالى أمام الشقق والسكان عاجزون عن التصرف. الذباب يجهل طرق تحديد النسل والحشرات والدواب يهددون بانتشار الأمراض والأوبئة. ازداد تضخم المشكلة وبيات

□ إضراب الزبالين □

الجميع يفكرون في حل لما تورطوا فيه . أحد السكان الأذكاء فكر في مخرج هلال له كل السكان. كل ساكن يضع قمامته في كيس من (البلاستيك) أو داخل صحيفة قديمة ويربط على القمامة جيدا. يترقب حتى يتوغل الليل والناس أغلبها نيام في سبات عميق. يلقي من نافذته بربطة قمامته إلى عرض الشارع دون كلام. في الصباح سيرغم عمال النظافة على التقاط الربط وجمعها في عربتهم. بهذه الحركة فإن الزبالين الأغبياء قد قطعوا أرزاقهم بأيديهم عندما تضامنوا مع البشوتى الزبال. استراح كل السكان لهذا الحل البسيط الذى لن يكلفهم شيئا مذكورا. بل سيوفر لهم الأجر الشهري الذى كان يتقاضاه زبال البيت. وعند تأخر الوقت من ذات الليلة إنهالت أكياس القمامة لترتطم بأرضية الشارع. تحولت قمامة البيت المتراكمة لترقد ساكنة في انتظار حضور عمال النظافة.

صباح اليوم التالى جاءت عربة النظافة الحكومية يسير خلفها العمال. عدد من سيدات البيت متناثرات في شيابيكهن يتطلعن لنتيجة ما تم تنفيذه الليلة البارحة. بعضهن تتضحكن بصوت مرتفع وأخريات تكتفين بالابتسام. بين دهشتن وتعجبهن سارت العربة في طريقها مبتعدة عن المكان. أحد أصحاب المحلات لفت أنظار العمال إلى أهرامات القمامة التى تخطوها. توقفوا بعربتهم وتهامسوا ثم افترشوا طوار الشارع الا واحدا منهم. ذهب زميلهم وبقيت العربة وبقية العمال في الانتظار. يبدو أنهم أرسلوا لرئيسهم ليحضر من يعاونهم في رفع تلال الزباله. الأكياس والربط تعترض طريق المركبات والسيارات ولا بد لها من الاصطدام بها. تمزق ما كان مربوطا وانفرط عقد الزباله بأرضية الشارع على أوسع نطاق. لم يمض وقت طويل وعاد عامل النظافة مصحوبا بأحد رجال شرطة المرافق. عاين الرجل المكان وأثبت في أوراقه ما رآته عيناه في عرض

□ إضراب الزبالين □

الشارع أمام البيت الكبير. استمع لأقوال عمال النظافة وكتب ما أملوه عليه ما حدث من سكان البيت بالأمس. دخل رجل الشرطة من باب البيت ونقل أسماء أصحاب الشقق من على صناديق البريد الصغيرة. من لم يجد اسمه يثبت رقم الشقة التي يسكنها دون حاجة إلى اسم صاحبها. أخيرا بدأ العمال في رفع الزباله إلى عربتهم ورجع رجل الشرطة من حيث أتى.

امتنع سكان البيت عن إلقاء أكياس القمامة إلى الشارع في الليلة التالية. تأكدوا أنهم وقعوا في مخالفة قانونية سترتب عليها توقيع جزاء لا محالة. عاشوا مشكلة جديدة تتمثل في نوع وشكل الجزاء الذي سيوقعه القانون على كل منهم. جاء اخطار من شرطة المرافق إلى كل ساكن للمثول أمام المسئول عن نظافة الحي. على كل ساكن أن يدفع غرامة قدرها عشرة جنيهاً بالإضافة إلى عشرة قروش كرسوم تحصيل. هذه الغرامة تعد تصالحاً بين الساكن وشرطة المرافق على ما اقترفه في حق المجتمع. إذا اعترض على الدفع ستتحول الأوراق إلى النيابة منها إلى مبنى المحكمة. سيحكم في القضية بغرامة أكبر قد تصل إلى خمسين جنيهاً في المرة الأولى. يمكن أن يزداد حكم الغرامة في حالة تكرار ذات الفعل بإلقاء القمامة إلى عرض الشارع. دفع كل ساكن قيمة الغرامة صاغراً وتعهد ألا يعود إلى ما اقترفت يده أو ما فعله أحد أفراد أسرته. عادوا بالتأنيب على الساكن الذكي صاحب اقتراح إلقاء القمامة إلى عرض الشارع. كاد الموقف ينتهي بمشاجرة بين السكان أجمعين لولا أنهم تذكروا ما دفعوه كغرامة لإلقاء القمامة. سيعودون لدفع غرامة أخرى في حالة المشاجرة ولا فرق بين معتد ومعتدى عليه.

قصصنا السكان للتوسط في حل المعضلة التي دوختهم وأرقت لياليلهم. اتفقوا على ترضية البشوتى الزبال وكسب وده من جديد.

□ إضراب الزبالين □

يعود إلى سابق عمله لجمع قماماتهم ويتعهدون بألا يتعرض له أحد بسوء في المستقبل. سيرفعون أجره الشهري إلى مائة وخمسين قرشا وليس كما طلب هو. يمكنه أيضا الحصول على يوم راحة من جمع الزباله كأجازة أسبوعية. سألتهم عن التصرف في حالة طلب البشوتى اغتذار عاصم وزوجته له. أحقنهم سؤالي وأحسوا أنني أحاول رفع شأن من لا شأن له.

أفهموني باقتصار دورى على إحضار البشوتى لمقابلتهم في ساعة محددة. كانت نظراتهم لى توحى بادرأجى ضمن هؤلاء الذين يحتقرونهم ويحطون من شأنهم. لكن الأيام برهنت لهم زيف اعتقادهم عمن يحتلون أسفل دركات المجتمع. وقررت التغاضى عن نظراتهم والسعى لعودة البشوتى الزبال إلى سابق عمله.

بكرت فى انتظار عربة البشوتى لمقابلته ونقل رغبة السكان فى مفاوضته. فى البداية أبدى اعتراضا وتمنعا لكنى ظللت أحاوره حتى اقتنع برأى لااسترداد كرامته الجريحة. حضر فى الموعد وقوبل بالسهل والترحاب من الصغير والكبير. شرح له السكان ما اتفقوا عليه لكن عينيه بدا فيهما عدم الرضا والاقتناع. فطن أكثر من ساكن إلى ما تهدف إليه كلماته ونظراته الباحثة بين المجتمعين. تحرك إثنان منهم وأحضرا الساكن عاصم ليعتذر للبشوتى عما بدر منه. جاء عاصم وطيب خاطر البشوتى أمام الجميع وطفرت الدموع من عينى الزبال المسكين. دس عاصم فى يد البشوتى مبلغا من المال فرفضه فأعاد دسه فى جيب البشوتى. داعبه السكان بقفشاتهم وأرغموه على الابتسام بعد توقف الدموع. تغلبت طيبة قلب الرجل المسكين وسرعان ما عادت المياه إلى مجاريها. ورحل البشوتى تاركا الجميع على وعد منه لجمع قماماتهم من صباح اليوم التالى.

عادت الحمير الثلاثة العجفاء إلى سابق عهدهما بالوقوف أمام باب

البيت الواسع، في كل صباح يبكر البشوتى بالقفز من مكانه خلف الحمير ملتقطا زنبيله الكبير، يصعد بحماس إلى الطابق الأخير ليفرغ القمامة نزولا إلى الطوابق التالية. جاءنى أحد الأيام بعد انتهاء عمله بينما كنت واقفا استنشق هواء الصباح العليل. مد يده في مواجهتى فأردا راحة يده على آخرها فرأيت فيها ساعة يد ثمينة الشكل ذهبية اللون يبدو أنها باهظة الثمن. قال أنه وجدها في صفيحة القمامة الخاصة بالسكان عاصم زوج دلال. اقترحت عليه مصاحبته لإرجاع الساعة لأصحابها في نفس اللحظة. تردد في قبول اقتراحى ورأى قيامى بالمهمة وحدى فهو لا يحب الرجل ولا زوجته. تذكرت أن عاصم خرج بسيارته منذ أول أمس ولم أره يعود إلى شقته بعد.

قبل تحرك عربة الزباله بالبشوتى توقفت سيارة عاصم أمام باب البيت أسمعنى عاصم تحية الصباح من خلف مقود السيارة ورددت على تحيته بأحسن منها. ناديت على البشوتى فجاء ليقف بجوارى وأعدت الساعة إلى راحة يده ليعيدها بنفسه إلى صاحبها. أوقف عاصم محرك سيارته ونزل منها وداعب البشوتى بعد إلقاء السلام. رد البشوتى السلام وانتظر حتى يفرغ عاصم من إخراج عدة صناديق كرتونية من مؤخرة السيارة. أعاد غلق حقيبة السيارة ونظر إلينا طالبا يد العون والمساعدة فاتجهنا للصناديق نرفعها كما طلب منا. مد البشوتى يده إليه والساعة الثمينة تحتل راحته المفتوحة. بتفاخر واعتزاز بأمانة أعلن عثوره عليها في صفيحة قمامته. بهت الرجل لحظات وأمسك الساعة في يده يتأملها بعينين ذاهلتين.

تركنا عاصم دون كلمة وبخطوات متثاقلة تحرك ناحية درجات السلم قاصدا شقته. صعد في ذهول وأسرعت مع البشوتى بحمل الصناديق الكرتونية لتلحق به. أمام شقته أخرج المفتاح من جيبه واضعا إياه بحذر شديد في قفل الباب. فتح عاصم بهدوء ملحوظ

□ إضراب الزبالين □

محاوفا عدم إحداء أى صوء. دءل مءلصصا على أطراف قءمفه وهو يصفء السمع. ءبائل مع البشوءى نظراء اسءفسارفة صامءة عن ءصرفاء صاءب الشقة. اقءربنا من الباب المءءوء نءطلع بعفوننا باءءفن عن الرءل الذى سبقةاه فى الدءول. رأفنا عاصم فهاءم عرفة نومه وفءءء بابها لفافءف من بءاءلها. سمعنا صراء ءوءءه ءلال وصوء رءل أصابه القلعءم الغاضب. لءظاء قللفة من الجءال والصراء بفن امراءة ورجلفن أءءهما ءوءها. ءءطلق عءة أعفراء نارفة لءسءقر ءاءل ضلوع بشرفة. فعود الصراء المراءع مءءلطا بنزاء الموء المءق.

.. ورأيت « الدينارى » يدفع « أحلام » أمامه بقسوة
، بعد أن لوى ذراعيها خلف ظهرها ، مقتحماً غرفتى
الزجاجية ، يتبعه رجاله الأشداء الغلاظ ، شاهرين
الرشاشات ، وحاملين قصعة كبيرة مملوءة بالحطب
وصفيحة مازوت .

وضعوا القصعة فى منتصف الغرفة ، سكبوا المازوت
فوق الحطب وأشعلوا النيران .

اقترب « أبو الروس » سمسار الأراضى ناحيتى ، وقال محذراً :
— آخر كلام ، « الدينارى » وافق يشتري الفدان بأربعين ألف ، ده
تمن متر واحد يقطعه من الأرض لزوم قماين الطوب ، بعدها غوروا
بأرضكم يا غجر .

حاولت أن أرد ، لكن لسانى التصق بسقف حلقى .

ضرب أبو الروس كفا بكف وصاح :

— صحيح بنى آدم عينه فارغة مايملهاش إلا التراب .. !

أشار الدينارى لرجاله ، فقاموا بتجريد « أحلام » من ملابسها ،
دهنوا الجسد العارى بالمازوت ، أحكموا وثاقها إلى سيخ حديدى
طويل ، ورفعوها أفقياً فوق النار . حاوت أن أعتدل جالساً ، هالنى أن
أطرافى الأربعة مشدودة ومربوطة إلى قوائم السرير المعدنى .

سمعت طرقات عنيفة على الحائط الزجاجى ، حركت عينى ، رأيت
رجال البلدة يدقون الزجاج بأكفهم ويصرخون ..

□ طوفان النار □

كانت السنة اللهب قد لامست جسد أحلام ، فسمعت نشيشاً
أقشعر له بدنى ، وشممت رائحة شياطين جلودها الرقيق .

وعندما أطلقت أحلام صرخة مدوية ، كان رجالنا قد نجحوا في
تخطيم الحائط الزجاجي ، واشتبكوا مع رجال الدينارى ، الذين فروا
هاربين أمام كثرة وجسارته رجالنا .

قفزت أحلام على السرير ، فكت وثاقي ، ارتمت في حضنى ،
أجهشت بالبكاء ، ربت عليها بحنو ، فتحول نشيجها إلى نهضة .

تحاملت على ، وتحركنا ببطء في الطريقة الطويلة المظلمة ، عند
السلام توقفنا كانت النار تزحف صاعدة السلالم نحونا ، فارتعبنا ،
استدردنا نحاول الهروب ، لكن النار اندلعت من الخلف أيضاً ،
فتخشبنا مبهوتين .

تناهى إلى مسامعنا دقات طبول ودفوف ، تتخللها زغاريد
مبحوحة لنساء بلدتنا ، فخبث النار واضمحلت ، انقشعت سحابة
الدخان الرمادية ، فنزلنا السلالم نتراقص بخفة ، وعندما سمعنا
صوتاً شجياً يغنى :

أنا كل ما أقول التوبة يا بوى ترمينى المقادير ..

تأبطت أحلام ذراعى وهى تدارى ابتسامتها الخجلى في الطرحة
التل البيضاء ، وتهادينى إلى أسفل خفيفين كعصفورين يغردان .

وعندما غادرنا المستشفى ، رأينا أهل البلدة يقفون في صفين
طويلين ، ينثرون علينا الورد والملبس وذررات الملح ، والرجال
يتقافزون بالعصى ويمارسون لعبة التحطيب أمام الموكب .

ولما اقتربنا من بوابة السكة الحديد ، خفتت الزغاريد ، تلاشت
دقات الطبول والدفوف ، وتسلى إلى مسامعنا آهات مؤثرة لناى ،
يصاحبها صوت المطرب الأسيان :

□ طوفان النار □

وبلدنا ع الترة بتغسل شعرها ، جانا نهار مقدرش يدفع مهرها ،
يا هل ترى الليل الحزين ، أبو النجوم الدبلانين ..

فجأة .. انشقت الأرض عن رجال الدينارى ، انتزعوا أحلام بقوة ،
جرجروها من ضفائرها إلى شط الترة ، قذفوا بها ، غطست ، وعندما
طفت .. كان المازوت قد غطى وجهها الخمرى وشعرها البنى الأثيث .

أشعل أحدهم عود ثقاب ، رماه على سطح الماء ، فاشتعل ، ظلت
بقعة النار تتسع حتى وصلت إلى أحلام ، فأمسكت بها النار ،
وتحولت إلى كتلة من لهب ، فانفجرت صارخاً .

جففت الممرضة عرقى المنثال بقطعة شاش ، وعندما لامست
حبات العرق ، حروق وجهى وعنقى .. كرزت على أسناني من شدة
الألم .

سألته عن حالة « أحلام » قالت أنها اجتازت مرحلة الخطر ، وأن
حالتها تتحسن تدريجياً . أمرتنى بالكف عن الحديث ، شمريت ذراعى
، وبحذر انغrust حقنة المهدىء فى وريدى .

شعرت بأناملها تهددنى ، وغمرنى فيض من طمأنينة ، هدأت
أعصابى المتوترة ، واعترانى صفاء وخدر لذيين .

ومن جديد ، راحت المشاهد تتلاحق وتنداح الصور المرعبة ،
ورأيتنى واقفاً أمام بوابة السكة الحديد التى تشطر بلدتنا إلى نصفين ،
سمعت جرس الإنذار يطلق رنيناً متقطعاً ، والفانوس يرسل ومضات
حمراء تحذيرية ، ورأيت سائق سيارة فنتاس المازوت يندفع
بالسيارة فى دوران حاد وعنيف ، محاولاً اجتياز البوابة قبل وصول
القطار ، فانقلبت السيارة على جانبها الأيمن .

فتح السائق باب الكابينة ، وفر هارباً للناحية المقابلة ، فى اتجاه
فيلا الدينارى ، صاحب سيارة المازوت وقمائن الطوب ، والعلاقات

المريية مع كبار القوم ، والكلمة العليا ، واليد الباترة .
انسكب المازوت من الفتحة العلوية للفنطاس ، بغزارة .. شق طريقه في مسارب ثعبانية ، ترسم خرائط في أرض الشوارع والحارات والأزقة .

هرعت النساء والبنات يحملن الجرار والأواني والصفائح ، يملأنها من شلال المازوت ، يرتقين السلالم الخشبية ، لتشوينها في غرف الخبيز وفوق أسطح البيوت ، وأثناء ذلك... كان المازوت المتسرب من الصفائح والأواني ، يرسم خطوطاً متعرجة على السلالم ، تنتهي فوق الأسطح المتلاصقة للبيوت الواطئة المسقوفة بقش الأرض وحطب القطن .

تحلقنا حول السيارة المقلوبة ، سألنى الرجال عن السائق ، جرينا صوب فيلا الدينارى ، حاملين العصي والفئوس ، طرقتنا الباب الحديدى بعنف ، فردت علينا البنادق الآلية والرشاشات من مزاغل برج الحمام ، فانبطحنا وزحفنا على البطون ، في محاولة لتطويق الفيلا .

ما إن لحنا دخانا كثيفاً ينبعث عند بوابة السكة الحديد ، حتى انتفضنا وانطلقنا عائدين نستجلى الأمر ، كانت نوافير النار تتدافع من فتحة الفنطاس وتلفح وجوهنا بسعيرها ، ظللنا نقذفها بحفنات التراب بلا جدوى ، بدأت النيران تتعقب خيوط المازوت ، آخذة طريقها إلى مداخل البيوت والزرائب ، ظلت النيران تسرع ، تلهث ، تفح ، صاعدة السلالم ، حتى وصلت إلى أماكن التشوين ، بضع ثوان .. وانفجرت صفائح وأواني المازوت ، وتطايرت مثل القنابل فوق أسطح البيوت .

دقائق معدودة .. وأصبحت بيوت البلدة كلها ، قطعة من جهنم ،

□ طوفان النار □

أتون جبار ينفث حمماً ملتهبة ودخاناً كثيفاً أسود ، ورذاذاً غطى
وجوه الناس والغيطان والمساقى والترعة العمومية بطبقة سميكة من
المازوت اللزج .

وسمعت صراخ جدتى :

— عليه العوض فى القطن يا ولاد ، الدخان والهباب خنقوا القمر ،
وإزاي اللوز راح يفتح يا ولداه ..!

ذكرنى نواح جدتى ، بتلك الليلة المشهودة والمحفورة فى أعماق
الذاكرة ، حين جلسنا على المصطبة أمام الدوار ، أنا وأحلام وجدتى ،
كان القمر قد استوى على عرشه المكين فى كبد السماء .

فردت جدتى ذراعيها فدخلنا تحت جناحيها ، رفعت وجهها
المتغضن للسماء ، ارتعشت خلجاتها بنشوة غامرة ، وقالت بصوت
متهدج :

— بصوا كويس للقمر يا ولادى ، دققوا ، مش حتصدقوا ، الليلة
بدر التمام ، بعد شوية ، راح يناغش القمر لوز القطن بنوره ، ساعتها
— بأمر ربى — يفتح اللوز على طول ، سبحانه عالم الأسرار .

بعد أن تناولنا فته الرقاق باللبن الحليب مع جدتى انسحبنا ،
تسللنا هاربين صوب غيط القطن البحرى .

قالت أحلام غير مصدقة :

— معقول كلام جدتى ..!

رددت عليها :

— الميه تكذب الغطاس .

عند شجرة الجميز العجوز الحارسة للساقية العتيقة .. توقفنا ،
أسندت أحلام ظهرها ، تشابكت أصابع يديها فوق رأسها ، فبان
خدها الأسيل شهياً ونايضاً فى الضوء الآسر .

□ طوفان النار □

أقتربت ، وبحركة مباغثة طوقتها بذراعى ، تحسست خدها المتوهج بشفتى ، أحنت رأسها ، وبحركة خاطفة تملصت ، انسلت من بين ذراعى كمهرة حرون ، وانطلقت تعدو برشاقة على المشاية ، حين سقطت .. اصطدمت بها ، وقعت فوقها ، تدحرجنا متلاصقين ، كانت أنفاسها تتسارع وصدرها يعلو ويهبط بطريقة أخافتنى ، فكففت عن المطاردة .

كانت أنفاسها اللاهثة المضطربة تتردد فى صدرى ، لثمت جبينها وبين الحاجين ، فهدأت تماماً وأغمضت عينيها ، وقبل أن تتماس الشفاه .. أفقنا على صوت طرقعات واهنة ، تشبه زقزقة عصافير الجنة ، مع الوقت تزايد معدل الطرقعات وأصبحت أكثر وضوحاً .

أصخنا السمع واعتدلنا جالسين ، رأينا ما يسلب اللب ويلجم اللسان ، كانت لوزات القطن تتفتح وكأن عصا سحرية تلمسها ، فتستيقظ من سباتها ، ظللنا نرقب اللوحة الربانية الحية مأخوذين .

لم ندر كم مر علينا من الوقت ، حين رجعنا متعانقين كنا قد ارتويينا تماماً .

وأشعر بالدفء يسرى فى أوصالى ، وترتفع درجة حرارة أعضائى شيئاً فشيئاً ، وتجتاحنى حمى تصل حد الاشتعال ، وأرى جسدى وقد اكتسى بجمرة قانية ، سرعان ما تحولت إلى الأزرق ، ثم مالبت الدخان يتصاعد من أعضائى فى خيوط رفيعة حلزونية ، فارتعبت ، ازدادت خيوط الدخان سمكاً ، فتيقنت أننى مشتعل لامحالة ، انفلتت منى صرخة استغاثة مجنونة .

هزتنى الممرضة بلطف ، وضعت الترمومتر تحت لسانى ، قالت للطبيب أن حرارتى ارتفعت درجتين ، فأمرها بحقن كيس المحلول بأمبول نوفالجين .

□ طوفان النار □

ومن جديد تصطبخ الأشياء داخلي ، تتقاذف الصور الرهيبة وتتداخل ، هاهم الرجال يسحبون المواشى المشتعلة من الزرائب ، هاربين في اتجاه التربة ، لكن اعتراهم الذهول حين شاهدوا أن مياهها مغطاه بطبقة من المازوت المشتعل ، فهاموا على وجوههم ، والنساء يحملن الصغار على أكتافهن ويمسكن بصرر خبان فيها أغلى ما يملكن ، والشباب يصارعون النار فوق الأسطح ، ويطلقون الأعيرة النارية على الحمام المشتعل .

طوفان رهيب من البشر المذعورين ، يتخبطون ، يستيقظون ، يتصايحون ، يتدافعون ، يتذرعون بعبارات الاستغفار والاسترحام للسماء ، لعلها تكشف عنهم الغمة ، يلوحون بأيديهم بإشارات غير مفهومة ، وتنطلق كلماتهم المبتورة مستنفرة ، والبناات يلطنن الخدود ويلطنن الرؤوس بعجينة التراب الممزوج بالرماد والمازوت .

وعندما وصلت سيارة إطفاء واحدة ، شرعت تضخ الماء فوق النيران التي أوشكت على الخمود ، فراحت ألسنة اللهب تندلع من جديد وتزغرد ، صرخنا فيهم :

— دى نار مازوت يا عالم ، يلزمها رغاوى .. !

للموا الخراطيم وانسحبوا ، تركونا في صراع غير متكافئ مع نيران شرسة وعنيدة .

وسمعت صراخ جدتى :

أحلام بنت عمك مغمى عليها في القاعة القبليّة .

اندفعت ناحية الغرفة ، دفعت الباب بقدمى .

كانت أحلام مسجاة على السرير ، والغرفة معبقة بدخان كثيف خانق .

هزرتها ، لم تستجب ، رفعتها من الخصر ، حملتها على كتفى

□ طوفان النار □

وهرولت مندفعاً ناحية الباب . فى منتصف حوش الدوار ، سقطت كتلة مشتعلة من السقف ، وأمسكت النار بفستانها النايلون .

اختل توازنى ، أسرعت الخطى ، فأنكفأت قبل أن أصل إلى عتبة الدوار ، تهاوت علينا عروق السقف والتعريشة المشتعلة ، ولم أشعر إلا وأنا ممدد بجوارها فى سيارة الإسعاف .

سمعت همهمات عند وصولنا إلى المستشفى ، بأن نصفها السفلى أصيب بحروق من الدرجات الثلاث ، وأنهم سيضعونها فى خيمة اكسجين .

غامت بى الدنيا ، وسمعت مكبر الصوت الذى أطلقه الدينارى ، ينادى بأنه مستعد لعلاج المصابين على نفقته ، مهما كلفه ، حتى وإن لزم سفر البعض للعلاج بالخارج ، كما أنه يتعهد ببناء البيوت التى احترقت أو تهدمت ، بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح ، وأنه سيصرف إعانات فورية لإعاشة المتضررين .

هلل الرجال فرحين بالعرض المغرى ، لكننى صرخت فيهم :

— احذروا يا خلق ، إنها خدعة جديدة ، سيكون ثمنها أرضكم التى ستلتهمها قمائنه ، من ذقنكم سيفتل لكم حبلاً تشنقون بها أنفسكم ، لا بد أن نسقيه من نفس الكأس التى تجرعناها ، إننى أشك أنه وراء هذه الكارثة ، ربما كانت خطة شيطانية للاستيلاء على أرض بأبخس الأثمان ، من يدري ربما كان السائق وسيارة المازوت هما وسيلته لإحراق بلدتنا بما فيها ومن فيها .. ؟!

ارتسمت علامات الدهشة والجدية على تقاطيع الوجوه الغاضبة ، زاموا فى صوت واحد :

— النار ولا العار يا دينارى ، على الباغى تدور الدوائر يا دينارى .

□ طوفان النار □

اشتعل الرجال حماسة ، حملوا البنادق والعصى والفئوس ، انخرطوا في طوفان هادر مدمدم حتى وصلوا إلى الفيلا ، قذفوا بكرات مشتعلة مشبعة بالمازوت ، أمسكت النيران بالأشجار المسيجة للفيلا ، ثم زحفت حثيثا للداخل ، ورأينا السنة اللهب تتعاطم وتزغرد من النوافذ الزجاجية ، فهللنا وكبرنا ، وعندما تحولت الفيلا إلى كتلة من النار ، ضربنا خصاراً حول الباب الحديدي الضخم نترقب خروجه ..!

قالوا له أذهب إلى الانتخابات .
عبد المتعال رجل فلاح غلبان اجير يطيع الأمر.. ذهب.
قالوا له لا تتأخر .
هب عبد العال من نومه قبل أن يصيح الديك. لبس
جلابيته الوحيدة، هرع إلى لجنة الانتخابات.
قالوا له صوتك امانة في عنقك .

ظل عبد المتعال لا يهز عنقه لمدة أسبوع. حتى يحتفظ بالأمانة
سليمة سالمة، ويسلمها إلى الحكومة .
قالوا له صوتك سيحسم نتيجة الانتخابات لم ينطق عبد المتعال.
هو طوال عمره لا ينطق. لكى يستطيع أن يكون صوته حاسما كما
يطلبون .

في اللجنة امسك عبد المتعال بورقة الانتخابات تفرج عليها كما
يتفرج كل مرة. أشار مساعد رئيس اللجنة إلى الرسومات الموجودة.
قال له.. ضع علامة صح أمام الرمز الذى تختاره. لم يفهم عبد المتعال
شيئا. هو لا يريد أكثر من صورة النخلة العالية ليضع تحتها خطأ
ملويا عند أسفله كالغرفة حسب أوامر العمدة .

في الركن خلف الستارة أخذ يبحث. عن النخلة . حتى هذه اللحظة
لا يعرف عبد المتعال ماذا حدث له ؟

تذكر وهو خلف الستارة المرشح الاخر الذى حضر إليهم شد على
يد رجال القرية الذين اتوا للفرجة في السرايق .

□ عبد المتعال ونخلة الانتخابات □

عندما اتى دور عبد المتعال. أحس بقبضة المرشح القوية. قال له أنت صاحب القرار أنت الذى ستقرر من سينجح فى الانتخابات . ليلتها لم ينم عبد المتعال. يتقلب فوق الفرش يتذكر كلمات المرشح.. لأول مرة يشعر أنه مهم.. أنه ليس مجرد الثور والبجم كما يدلله العمدة. يتعجب بزهو أنه هو الذى سيحسم نتيجة الانتخابات . رغم أن عبد المتعال ضخم كالثور إلا أنه طيب جدا .

طوال النهار يناديه العمدة. واد يا عبد المتعال. أنت بجم لا تفهم. أذهب. تعالى.. أنت جاموسة لا تحس. وعبد المتعال لا يردد غير حاضر يا عمدة .

فى تلك الليلة التى يشتريها بعمره كله. أحس. لأول مرة يحس. أنه أفضل من العمدة. وأقوى من العمدة.. كيف لا.. والمغرفة التى سيضعها تحت الرسم هى التى ستنتج صاحب الرسم !!

أحس عبد المتعال بالورطة التى وضعه فيها التفكير والتذكر. أول مرة يفكر. هذا ما جناه من التفكير والتذكر. أنه طوال عمره يأكل ويشرب ويشتم وراضى أو غير راضى بحياته لا تفرق هو لا يذكر أنه فكر مرة أنه راض أو غير راض بحياته وهل بهذا يفرق عن الحمار الذى عنده فى البيت !! هذا ما أخذه من التفكير والقرف. يشتم نفسه بنفسه. جلبه لنفسه. كان مرتاحا. لا يفكر ولا يتعب .

قالوا له ضع العلامة تحت النخلة العالية. هه لن يضعها تحت النخلة. سيضعها بمزاجه أنه يحب صورة الجمل. هو الوحيد الذى يمكن أن يمثله.

أخذ يبحث عن صورة للجمل لم يجد. الله يخرب بيوتهم لا أحد يمثله فى هذه الانتخابات. كلها صور لا تمثله. السيارة . الطائرة هل هو ركب فى حياته سيارة ليركب طائر.. وقعت عيناه على صورة

□ عبد المتعال ونخلة الانتخابات □

ميزان.. ليكن الميزان.. لعن الصور والرسم والانتخابات. حتى الميزان
في الصورة غير معدول.

لقد مل عمره كله هذه الموازين المقلوبة.

ولو لن يضع العلامة تحت النخلة العالية.. يريد أن يعمل شيئاً
مرة من نفسه لا يؤمر به . طوال عمره يطيع الأوامر.. انه مثل الثور في
الساقية . يجرها إلى أن يتوقف قلبه. لا يملك أن يتحرر منها. انه مثل
البهيمة التي تجر الساقية. لا عقل ولا حرية ولا إرادة يمشى ويسير
ويدور بأمرهم ورغبتهم .

لا لن يكون مثل البهايم ولن يضع العلامة تحت النخلة العالية .

هو يريد أن يحس انه استطاع أن يقول لا. حتى ولو لم تكن امام
أحد. يكفي أنها أمام نفسه. طوال عمره يقول نعم. ولم يتحسن حاله..
ولن يكون اسوأ مما هو فيه يقول نعم ويحس طعمها في حلقه مر
كلحظة. سيقول مرة في نفسه لا.. لا.. لا..

وجد عبد المتعال فمه يفتح وحده مثلما تصل الكهرباء المقطوعة
فجأة لراديو العمدة.. لا.. لا..

الله جميلة كالأغنية.. لا يا حبيبي لا. عبد الحليم يغنيها.. نار
يا حبيبي نار.

أحس بطعمها جميل ولذيذ. أول مرة يتذوق طعم «لاو كررها
منتشياً.. ما هذا الشعور الساحر؟. ما هذه الكلمات المسحورة التي
تجعله ينتشى كما لو كان قد شرب جرذاً من البوظة ؟

في قمة نشوة عبد المتعال. هدر صوت العمدة. تزلزل كيان
عبد المتعال كله.

واد يا عبد المتعال . لك ساعة بالداخل يا بجم .

رد عبد المتعال وهو يللم نفسه .

ما هو يا عمدة خلاص .

ارتجف عبد المتعال كالمحموم . شعر بالأرض تهتز تحته . اسرع بالقلم تحت العربية . أى رسم الانخلة العالية . لتكن العربية . يكفى أن الرجل شد على يده قال له كلاما يساوى عمره كله .

دفع عبد المتعال يده لترسم المغرفة تحت العربية . تسمرت يده تحت الصورة . كاد يصرخ غيظا .

كرر المحاولة .. لم يستطيع .

طفح جسمه كله بالعرق فى عز الشتاء .

كل أعضاء عبد العال ترتعش . لا يقوى حتى على امساك القلم .

تحركت الستارة . برز وجه العمدة . فم عبد المتعال يرتعش ولا يتكلم دوت يد العمدة على قفا عبد المتعال فائقدا نارا .

شد العمدة الورقة من عبد المتعال . أشار إلى أحد الرسومات .

— هذه هى النخلة يا بجم .

سحب العمدة القلم منه وضع العلامة بنفسه تحت النخلة .

ابتسم العمدة لرئيس اللجنة .

— ألم أقل لك انه كالنور لا يفهم شيئا .

عندما زارنى الأرق فى تلك الليلة الصعبة ، لجأت إلى اليوجا أحاول تطبيق بعضاً مما فهمته . قالوا أنه يمكن أن يصدر العقل أوامره لأعضاء الجسم بقوة وحسم فتطيع حتى أنه يمكن للإنسان أن يخفض عدد نبضات القلب أو درجة الحرارة .

فى تلك الليلة الرهيبة أرقّت كثيراً حتى توترت ، أحاول أن أجذب النوم دون جدوى . وخطر لى استخدام اليوجا فى إصدار أوامر العقل إلى الجسم أن ينام ، ولذت لى الفكرة ، فأصدرت الأمر إلى أصابع القدمين أن تنام ، ثم تبعتها إلى الساقين والذراعين والبطن وكل أجزاء جسدى . اكتشفت أن أعضائى قد استجابت ونامت كلها ، حتى أنى لم أستطع أن أرفع ذراعى لأعلى ، فقد استجاب ونام ، ولم يعد يتلقى أوامر المخ . فرحت بالاكشاف وتأكدت أن جسمى كله قد نام ، وتبقى العقل متيقظاً احترت فيه كيف أجعله ، يقر ويهدأ ثم ينام هو الآخر ، حاولت ، ولا فائدة .

مضت ساعات وأنا على هذه الحالة بعقل نشط وجسد هامد نائم ثم أحسست الرغبة أن أتقلب ، ولم يستجب جسدى للمحاولة أبداً ، وبدأ ذلك غريباً للغاية فاستسلمت . انتابنى بعدها شعور بالحاجة إلى أن ألبى نداء الطبيعة ، وتزايدت رغبتي أن أقوم إلى الحمام . وعاندنى الجسد أن يستجيب ، بينما رغبتي تتزايد حتى أصبحت ضرورة ملحة وإلا .. !

لماذا استجاب الجسد للأوامر بالنوم ، ولم يستجب للأوامر

□ يوجا □

بالحركة ، والنظرية واحدة هي تحكم العقل بالارادة القوية في كل الجوارح حاولت أن أنسى احتياجي للحمام دون جدوى حتى أصبح ذلك أملاً بعيداً . أحسست بمثانتى تكاد تنفجر من الضغط داخلها في احتياج ملح وعنيف لأن أتحرك ، ولكن بلا فائدة فالجسد كله قد تصلب نائماً . هذه التجربة اللعينة القاسية جعلتني أحس آلاف المسامير تنغرس في جسدى .

فجأة تغير الوقت والمكان ، وجدت نفسى أرقد جوار جدار المنزل ، نائماً على ظهري في الحديقة ، أرى السماء والنجوم وأسمع حفيف الشجر ، ورأيت أحد الأطفال العفاريث فوق سطح المنزل يمسك بيده حجراً كبيراً يصوبه ويتحرك به ليسقطه بأحكام نحوى .

رأيت الحجر يسقط ، حاولت أن أترشح قليلاً لاتفادى الصدمة . الجسد كان نائماً ، وهوى الحجر فوقى تماماً وأصابنى ، وصرخت بقوة ولم تخرج الصرخة أبداً ، بل خرجت دفعة من هواء الألم القاتل شمل جسدى كله . أريد أن يسعفنى أحدهم أئن ، أتأوه ، أنادى ولا مجيب . كل ذلك ولم يفارقنى الشعور القوى بالحاجة إلى الحمام ويضاعف من عذابى .

آهة طويلة عميقة سمعتها تخرج منى عندما أحسست بتيار من الماء الدافئ ينساب فوق فخدى ، فشهقت ، هل أنا.. شعور لم أحسه منذ أكثر من خمسين عاماً ، والبلبل بالماء الدافئ يغمر نصفى الأسفل والشهقات وآهات العجب والأسف والخجل لما أنا فيه تصدر منى بلا توقف .

يدان قويتان إحداهما فوق كتفى تهزنى بشدة ، والأخرى أصابعها فوق عيني تشد الجفون لأعلى أن أستيقظ . وجدت روحى تعود إلى كما لو كانت آتية من قعر بئر عميقة ، وصوت زوجتى الملتاعة في همهمات بعيدة تهمس أن أفيق . وأفقت لأجد العرق يغمرنى وأنفاسى

□ يوجا □

متهدجة، والرعب يتملكنى .

قالت أرعبتنى كثيرا، ظننت أنك.. شددت الغطاء فوقى ليسترنى، وأمتدت يدى فى حركة مسروقة تتحسس ملابسى. المفاجأة. لقد وجدت ملابسى جافة، كلها جافة تماما. وانقلبت أناى وتأوهاتى إلى قهقهة عالية وقفزت بسرعة أجرى فى اتجاه الحمام. قالت زوجتى. اللهم اجعله خيرا .

الفهرس

صفحة

- حكايتى مع هذه القصص (بقلم : فتحى غانم) (١٠)
- ١ - الأبراج ()
- ٢ - الغـاز ()
- ٣ - مسألة بسيطة (٥٩)
- ٤ - اهلا يا باشا (٦٥)
- ٥ - الثأر والليل (٧٥)
- ٦ - جسد آخر .. وحيد (٨٥)
- ٧ - إضراب الزبالين (٩٩)
- ٨ - طوفان النار (١١٩)
- ٩ - عبد المتعال ونخلة الانتخابات (١٣١)
- ١٠ - يوجـا (١٣٧)

To: www.al-mostafa.com